عزيزي السيد "G"

عزيزي السيد "G"
ضحى صلاح
تصميم الغلاف : محمد كامل
رقم الإيداع : ٢٠١٣/١٠٨٥٩
I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٤٨٨- ٢١٨- ٠

دار اكتب للنشر والتوزيع
اكتب OKTOB.NET
الإدارة : ١٠ ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة.
المدير العام : يحيى هاشم
هاتف : ٠١١١٠٦٢٢١٠٣ - ٠١١٤٧٦٣٣٢٦٨
مكتبة اكتب : ٤٠ ش أحمد قاسم جودة من ش عباس العقاد ، خلف سيراميكا كليوباترا ، القاهرة.
هاتف : ٠١١١٤٣٢٨٥٢٥
E – mail :daroktob١@yahoo.com
Facebook : دار اكتب للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى ، ٢٠١٣م

عزيزي السيد "G"

ضحى صلاح

روايات قصيرة



دار اكتب للنشر والتوزيع

إهداء

١- قارئي العزيز:

شكرًا لأنك تنفق وقتك من أجل قراءة الهراء الذي أكتبه.. أنت تعطيني جزءًا من حياتك الآن، لهذا أنت لا تدرك كم أنا ممتنة لهديتك تلك

٢-لصوت (فيروز)، وبحر (الإسكندرية)

إهداء خاص جدًا: إلى عزيزي السيد (جـي)، لعلها تكون هدية ميلاد مُناسبة

على سبيلِ التقديم

إنها ثلاثيتي الثانية.. أنا لا أُصدق حقًا أنني أنهيتها!

لقد تخيلت دائمًا وأنا أكتب (عزيزي السيد جي) أنها ستكون رواية طويلة، ولكن كالعادة أنا لا أجيد الـــ(رغي).

قالت لي صديقتي آية عبد الرحمن (هيرمي): أموت وأشوف اللي بيبقى واقف وراكي وأنتِ بتكتبي مسلط سكينة على رقبتك وعاوزك تخلصي بسرعة!

حقيقةً أنا أجد نفسي بالروايات القصيرة، ورغم أنني جربت كتابة المقالات؛ بل وحاولت كتابة رواية طويلة والروايات الساخرة إلا أنني أشعر دائمًا وكأن حس الدُعابة ينفذ مني، رُبما يتملكني بعض الملل.

لقد قال لي أستاذي (أحمد معروف) يومًا بأنني كاتبة قصة قصيرة من الدرجة الأولى، وقتها ثرت وقلت له أنا كاتبة روايات!

ولكن كلما تقدم بي الوقت تأكدت من صحة ما قاله.. أنا كاتبة قصص قصيرة، وروايات قصيرة فقط!

لا أدري سبب كتابتي لرواية:]قطعة شيكولاتة سويسريَّة[، إنها رواية قصيرة للغاية.. حوارية ولا تحتوي على كلمة وصف واحدة.

لا أدري إن كنت أول من فعلها أم لا، لكني قمت بها على سبيل التجربة أتت الفكرة لكنني لم أحاول كتابتها؛ فقط ظللت أبحث عن

اسم للبطلة حتى وجدت صديقتي ندى علاء (دارك) تُرسل لي رسالة من رسائلها التشجيعية التي تُبهجني وقتها أضاء الاسم برأسي؛ فقلت: ستكون ندى!

وبدأت بكتابتها بنفس اللحظة ولم أتوقف إلا عندما أنهيتها بعد ساعات قليلة.

بينما (روليت الانتظار) (طلعت عيني) حتى أنهيتها، لكني بالنهاية فعلت!

بالحقيقة أنا لم أحب نهايتها، ولم أحبها ولا أدري كيف كتبتها من الأساس!

لقد ألهمتني صديقتي هالة هشام (جان) بشخصية البطلة سارة، رُغم أنها حتى الآن رُبما لا تُدرك ذلك التشابه بينها وبين بطلتي!

أما (عزيزي السيد جي(فهي أكثر ما كتبتُ قربًا لقلبي؛ بل أعتقد أنني وضعتُ جزءًا من روحي بها عند كتابتها، أذكر عندما أنهيتها شعرت وكأنني أودعُ شخصًا عزيزًا لن أراه مجددًا، والحق يُقال أنني لم أرغب بإنهائها، ولم أرغب بنشرها لكني أجازف الآن بتلك الثلاثية، وبتلك الرواية القصيرة التي جاءت على شكل رسائل مُتفرقة.

أعلم أن الروايات العربية التي استخدمت تكنيك الرسائل قليلة للغاية؛ لذلك قد لا يستسيغه البعض.

قد يتساءل الكثير منكم عن مغزى ما أكتبه، رُبما لن تجد الفكرة واضحة؛ فالأدب بنظري لا ينقل أفكارًا بل ينقل مشاعر.. وتلك

المشاعر يستطيع كل شخص منها أن يصوغها في صورة أفكار معينة تختلف عن أفكار الآخرين.

لا أستطيع أن أحدد المغزى من كل رواية لأن المغزى يتوقف على القارئ؛ القارئ فقط هو الذي يقوم بالمعايشة، ويقوم بالتحليل، ويقوم بالتوصل لفكرته الخاصة.

ضحى صلاح

أوريتيا

يونيه ٢٠١٢

أن تدير وجهك عن البراهين الواضحة للخداع..
أن تشرب السُّم كما لو أنه خمرٌ مُسكن للآلام..
أن تنتشي استخفافًا بكونك مجروحًا..
أن تؤمن أن الجنة تكْذِبُ ما ورد عن الجحيم..
أن تكرِّس روحك وحياتك لخيبة الأمل..
هذا هو الحب، كل مَنْ تذوقه..
يعرفُ...

لوبي دي فيجا

قطعة شيكولاتة سويسريَّة

طوال حياتي لم يمحِ آلامي سوى قطعة شيكولاتة...

كلما تذوقتها شعرت وكأنها تُخبرني ببساطة أن كل شيء

مهما كان مؤلمًا.. مؤذيًا.. قاتلًا.. سينتهي.

القطعة الأولى

-١-

-دائمًا ما تجعلين حياتك مجرد عُشب سهل جزّه من أراضي الرجال.

– أنا أبني حياتي دائمًا فوق خط الزلازل والبراكين، لكن منزلي لا يُهد أبدًا.. رُبما أنقله بإرادتي؛ لكنه لم يسقط فوق رأسي.

-سيسقط يومًا طالما تجعلين من شخصٍ ما بطل قصة حياتك وأنتِ بقصته مجرد (كومبارس).

– صدقيني يا ريم أستطيع أن أنجح بأي دور؛ فحتى (الكومبارس) يحتاج إلى العديد من الأدوار حتى ينال ثقة البطل الأول.

-ولكنه لا ينالها بنفس القصة.

-من يهتم!.. المهم أنه سينالها يومًا ما.. فقط ثقي.

-٢-

-هل بإمكاني فقط أن انتحر يا أمي؟

-لا..

-لماذا؟

-لأنه حرام.

-ولماذا هو حرام؟

-لأنكِ لم تعطي لنفسك الحياة من الأساس.

-ولكني أيضًا لم أطلبها!

-لماذا لا تكونين فقط شاكرة لكونك موجودة!

-لقد انتحرت ريم.

-انتحرت لأنها غبية.

-وربما لأنها أعقل العقلاء!

-هل تريدين الموت يا ندى؟!.. هيا موتي.. موتي و لن يبالي بك أحدٌ من الأساس.

القطعة الثانية

-١-

-أنا أحبك يا أحمد.

-ندى.. ألم تفهمي بعد؟! كلانا لا يتوافق مع طموحات الآخر.

-أليس بإمكانك التنازل قليلًا لأجلي؟!

-سلي نفسك أولًا.

-لقد تنازلت كثيرًا...

-لم أطلب منكِ التنازل من الأساس...!

-٢-

-ما المرأة القويَّة يا أبي؟

-لا يوجد امرأة قويَّة يا ابنتي.

-ما الرجل القوي يا أبي؟

-لا يوجد رجلٌ قويٌّ يا ابنتي.

-ألا يوجد شخصٌ قويّ يا أبي؟

-الجميع يمر بلحظات ضعف يا ابنتي.. لن تكوني يومًا قويَّة.

-لكن ريم كانت قويَّة.

-أتُصدقين هذا؟.. لو كانت قويَّة لواجهت الأمر بدلًا من الهروبِ منه.

-هل تعتبر قتلَ الذاتِ هُروبًا!.. لقد كانت أكثرنا شجاعة.. جميعنا نُفكر بالانتحار ولكن لا أحد يقدم عليه؛ فقط لأننا نفتقر للشجاعة.. للقوة.. لا تقل عنها أنها جبانة أبدًا يا أبي.

***

-١-

-الحبُ سيأتي مع الوقت.

-الحبُ لا يحتاج إلى تسويفٍ يا أبي.

-ماذا يحتاجُ إذن؟

-يحتاجُ يقين.. الحبُ بحاجةٍ إلى يقين.

-الحبُ يأتي مع الوقتِ يا بنيتي هداكِ الله.

-لماذا تعاملُ الحبَ وكأنه سلعة تستطيع شرائها وقتما تحب!

-كُفيِّ عن الفلسفة الفارغة، سيحبك وستحبينه مع الوقت.

-أشياءٌ على غرار (سيحبك).. حتى وإن قلت أنه (سيحبني) إلى الأبدِ تعطيني احتمالية النجاح أو الفشل؛ عندما تحب أنت تحب دون الـ(سين والتسويف) أنت لا تُدرك الأمر حق الإدراك إلا عندما تكونُ بالفعلِ متورطًا.

-اصمتي وإلا صفعتك.

-هذه حياتي يا أبي أنا لن أصْـــــــــــ...

-٢-

-ريم انتحرت.

-لماذا انتحرت؟

-لا أدري.. بالفترةِ الأخيرة كانت تتجنب الجميع، ثم وجدها غارقة بحوض الاستحمام؛ قال الطبيب أنها ابتلعت علبة من المنوم، وغرقت في المغطس.

-يا لها من طريقة شاعريَّة للموت!

-إنها طريقة حمقاء للموت!.. كيف لها أن تتركني هكذا!

-أففففف.. لا تبكي يا ندى مجددًا.. لقد سأمت هذا!

-سئمتني؟.. لا تصمت هيا أجبني.. أسئمتني؟

-كفي عن النكد يا ندى، أنتِ لا تجيدين شيئًا سوى افتعال النكد!

-ألا أجيد أي شيءٍ يا سامح؟

-لماذا تبدين مذهولة هكذا!.. أنتِ فاشلة في كل شيء يا ندى حتى ممارسة الحب!

-أنادمٌ أنت للزواجِ مني؟

-أنا لم أقل هذا يا ندى.. أنادمةٌ أنتِ؟.. لماذا لا تجيبين.. انطقي يا ندى.

-نـــــ... نـــــ... نسرين صديقتي فرحها الأسبوع القادم.. أبإمكاني الذهاب؟

-...

-هل نمت؟.. سامح؟

-أنتِ طالق يا ندى.

***

القطعة الرابعة

-١-

-لماذا تتناولين هذا الكم الكبير من الشيكولاتة يا ندى؟

-إنها ليست أي شيكولاتة يا ريم؛ إنها شيكولاتة سويسريَّة.

-أعطني قطعة.

-لا.. لقد أرسلتها لي راشيل.. هذا النوع لن يتوفر بهذا البلد ولو انطبقت السماء على الأرض.

-...

-أتعلمين يا ريم.. طوال حياتي.. طوال حياتي كلها لم يمحِ آلامي سوى قطعة شيكولاتة سويسريَّة؛ كُلما تذوقتها شعرت وكأنها تُخبرني ببساطة أن كل شيءٍ مهما كان مؤلمًا.. مؤذيًا.. قاتلًا.. سينتهي. كل شيءٍ سيكون أفضل.. وأنا سأكونُ بخير.

-أتمنى لو كنت أملك تلك القطعة يا ندى، أنتِ لا تدركين كم أرغبها بشدة.

-ترغبين بالشيكولاتة حقًا؟

-لا يا عزيزتي.. أرغب بقوة الشكيولاتة وليست الشيكولاتة نفسها، أنتِ تعلمين أنني لا أستطيع تناولها.

-نعم أعلم.. تجاهليني فقط وقاتلي.

-أقاتل؟

-نعم أنتِ تجيدين القتال.. بينما أنا لا أجيد سوى الهروب.. أهرب بشيكولاتتي وأنتِ قاتلي يا ريم طالما قالوا أنكِ ولدت قويَّة.

-من يعلم!

-٢-

-أتحبني يا أحمد؟

-ندى لا تتساءلي عن حقيقة مشاعري نحوك.. اتركيها مبهمةً لي، لا تجعليني أفكر في الأمر كثيرًا؛ لأنني إذا أدركته سأملّه وإن مللته سأرحل كما أفعلُ دائمًا.

-أنا بحاجة لإجابة يا أحمد.. أتحبني؟

-وأنا أيضًا بحاجة لإجابة يا ندى.. لماذا تحبينني وأنتِ تدركين أن عيوبي غير قابلة للإصلاح، تدركين أنني كاذب ومنافق وغير قادر على الإخلاص لامرأة واحدة.. لماذا تحبينني؟

-...

-تكلمي.. هيا.

-طالما لم تُدرك السبب حتى الآن فليس هناك داعٍ للشرحِ.. أراكَ لاحقًا.

-ندى.. انتظري.. ندى!

***

-١-

-المضحكُ فينا أن كل شيء حدث صدفة؛ اللقاء كان صدفةً، والحب حدث صدفةً، لم أخطط له.. لم أخطط لأي شيءٍ، و لكن يبقى سؤالٌ يحيرني أيكون فراقنا أيضًا محض صدفة؟

-تفكرين كثيرًا يا ندى.. هيا دعينا نعود لمنازلنا فالوقت تأخر الآن.

-أحمد.. عدني أنك ستبقى معي للأبد.

-لا يوجد أبد يا ندى.. الواعد بالأبد مجرد أفّاك، لا أستطيع أن أعدُكِ بشيءٍ لن أنفذه.

-عدني ولو كذبًا.. لا أريدُ شيئًا أكثر من ذلك يا أحمد.. عدني.

-هلّا صمتِ!

-أنا أُحبُّكَ.

-وأنا أشعرُ بالجوعِ الآن.

-٢-

-إنه حقيرٌ يا ندى.. اتركيه وإلا سيتركك بأسوأ طريقة ممكنة.

-لا أستطيع يا ريم.. لا أستطيع.. كُفّي عن الصراخِ بي أرجوكِ.

-لماذا! أكاد أجن!.. أكاد أموت كمدًا وغضبًا.. ما الذي يعجبك بذلك المخنث؟

-دعيني أخبرك بسرٍ صغيرٍ يا ريم، هو فقط يفهمني حين يعجز الآخرون عن فعل ذلك.

-أنتِ لا تسمحين لأحد بأن يفهمك، أنت منغلقة على نفسك دافنة نفسك بمعاناة زائفة يا ندى.. أنتِ مُدَّعِيَةٌ.

-أنا مُدَّعِيةٌ يا ريم!

-أنتِ مُدَّعيةٌ يا ندى، ما الذي لا تفهمينه بكلمة (مُدَّعِية) كي ترددِيها كالبَبَغَاء!.. (مُدَّعِية.. مُدَّعِية.. مُدَّعِية).

-...

-ها أنتِ على وشكِ البكاء.. (ندى) إنه الاسم الجديد للنكد!

-اخرسي وإلا قتلتك.

-تقتلينني يا ندى لأجل سواد عين ذلك الحيوان!.. لا تقتليني فأنا آجلًا أم عاجلًا سأموتُ تاركةً لكِ المكان كله.

-لا تقولي هكذا أيتها الحمقاء أنا أُحِبُّكِ.

-ندى.. ندى ستَخنُقينَني بعناقِكِ هكذا.. كُفِّي عن البكاء أنا لن أترك توأمي أبدًا مهما كلفني الأمر، هيا لا تبكِ لقد وعدتك أن نموتَ معًا.

***

القطعة السادسة

-١-

-عندما قلتَ لي أنكَ الوحيد القادر على البقاءِ جانبي رُغم كل شيءٍ، رُغم أي وعدٍ قد أمنحه لك.. عندما طلبت أن أُعطي الأمر مجرد فرصة ولن أخسر شيئًا.. ببساطةٍ رفضت!

-وها أنا أعود لأعرضُ يا ندى.

-وها أنا أعود لأرفضُ يا عُمر؛ فأنا بانتظارِ معجزةٍ ما لم تُهدَ لنبيها بعد، بانتظار هبة إلهيَّة قادمة في وقتٍ ما، بانتظار (رَجُلي) و لست بانتظار أميرًا خرافيًّا من حكايةٍ ما.

-لقد تغيرتِ كثيرًا بعد موتِ ريم يا ندى.. تغيرتِ كثيرًا.

-ليس موت ريم فقط؛ بل وطلاقي أيضًا.

-المكانُ باردٌ دونكِ للغايةِ يا ندى.

-إنه باردٌ للغايةِ دونكَ أيضًا يا عُمر.

-أيمكنني أن أنعمُ بدفئك قليلًا؟

- لا أريد أن أكون وحيدةً مجددًا.

-لقد قال لي شخصٌ ما يومًا أننا قد نستغرقُ العمرَ كله في محاولة إيجاد كينونتنا، بينما لا نستغرقُ سوى لحظةً واحدةً في نسيانها.

-لم أفهم!

-أنا فقط لا أصدقُ هذا القول يا ندى، أنتِ كينونتي، أنا لن أنساكِ ولن أخونك أبدًا.

-الحبُ لعُبةٌ يا عُمر.. ولقد تخطيتُ طورَ الطفولة.

-٢-

-توقعت أن يطلبَ مني قضاء إجازته معي يا ريم، لكنه لم يفعل كالعادة.. كم هذا مثيرٌ للإحباطِ!.. هل تشعرين بما أشعرُ به يا بطيخة؟

-أتساءلُ يا ندى لماذا نتوقع الكثيرَ من الآخرين؟! لماذا فقط نَضغطُ عليهم دون أن نُدرك أنه ليس بالضرورةِ أن يَبذُلوا تجاهنا ما نَبْذُله تجاههم!

-ليس هذا وقت فلسفة يا ريم أرجوك!.. لدي ما يكفيني.

-جميعنا لديه ما يكفيه أيتها الأنانية.

-أنا أنانية يا ريم؟

-نعم أنانية.. أنانية.. أنانية.. لا تقومي بترديد كلامي مرةً أُخرى؛ فهذا مُثيرٌ للغيظِ.. أنا لا أتفوه مثلك بكلماتٍ لا أعنيها.

-أنا أتفوهُ بكلماتٍ لا أعنيها يا ريم!

-كما أنكِ عسيرةُ الفَهْمِ أيضًا.. أنانيةٌ وعسيرةُ الفَهْمِ.. لا تبدين مشدوهة هكذا.

-أنا أكرهُك يا ريم.. أكرهُك.

-حسنًا ها قد عُدتِ للتفوهِ بهذا الهُراء الذي لا تعنيه!.. كان الله في عون أي أحمقٍ قد يَرغبُ بالزواجِ منكِ.

-ريم..!

-ندى..!

-أريد أن أُعانقُكِ.

-وأنا لا أستطيع أن أُعانقُكِ الآن.. ستلطخك الحنة.

-لا يَهم.. هيا عانقيني.

-أنا أُحِبُّكِ كثيرًا يا ندى.. كلماتك الطائشة حقًا تُؤلمني.

-أنت تعجزين عن فهمي يا ريم.

-لا أحد يَفهَمُكِ أكثر مني يا ندى.. لا أحد.

القطعة السابعة

-١-

-أنا أنزفُ يا ريم.. أنا أموت.

-لا يا ندى، لا تتركيني يا ندى.. ندى.. لا تفقدي الوعي.. لا تستسلمي لتلك السحابات البيضاء.. لا تذهبي.

-صوتُكِ بعيدٌ يا ريم.. حلقي يتخشب.. كلامي لا يخرج يا ريم.. ريم أتسمعينني.. أتشعرين بي؟.. أنا أتجمد.

-ندى.. تماسكي يا ندى.

-الشيكولاتة يا ريم، أخفيها جيدًا قبل أن أذهب.

-ندى.. ندى بربك تماسكي.. ماذا؟.. شيكولاتة!.. لعنك الله يا ندى لن يلتهمُها أحدٌ سواكِ.

-لا أريد أن أموت يا ريم.. أنا خائفةٌ.. الموُت مُخِيفٌ يا ريم.. أنا خائفةٌ.. خائفةٌ.

-اللعنة يا ندى.. من يستحق موتك اللعنة.. سأقتله.. سأقتله أقسم.

-٢-

-لماذا لا يستطيع البشر إدراك أهمية أن يكونوا ألغازًا؟!

-لا أفهمك يا ريم.

-أريد أن يكون إنصاتك أكثر من حديثك.. أريدك أن تُدركي أهميةَ الإنصاتِ يا ندى.. إن المرأة التي لا تتحدث كثيرًا امرأة لا تخطئ، عندما تتكلمين تتفوهين بكلماتٍ -ربما لا تقصدينها- قد تجرحُ الأشخاص حولك، قد تجعلهم ينفرون منكِ يا ندى.

-أنا أكرهُ الأسرارَ.

-لكن حياتُكِ الخاصة لم تُخلق كي تكون مشاعًا للناس!

-أممممممممم...

-لا تغمغمي هكذا واتركي تلك الشيكولاتة اللعينة من يدك!

-لا أريد.. أنا أشعرُ بالغضبِ الآن.

-وعندما تشعرين بالغضبِ تأكلين نصف قطعة؟

-راشيل هاجرت لكندا ولن ترسل لي شيكولاتة لابد أن أقتصد يا ريم.

-تبًا لكِ.

-ولكِ.

***

-١-

-فقط تخطيه يا ندى.

-تقولينها وكأنه من السهلِ نسيان كل شيء وإبعاد ذكرياتنا!

-أنتِ تستحقين الأفضل.

-دعيني أعلمُكِ شيئًا للمرةِ للأولى يا ريم.. هذا التخطي ما هو سوى عملية انتحارية.. إنَّه تدميرٌ لي قبل أن يكون تدميرًا له.

-...

-أحيانًا أشعرُ برغبةٍ بالصراخِ بكم جميعًا.. لماذا لا تفهمون أنني أحبه، رُغم كل ما فعله، يفعله، سيفعله.. أنا فقط أحبه!

-لماذا أنتِ بهذا الغباء!.. غبية.. غبية.

-لست أكثر غباءً منكِ

-٢-

-تتحدثين كثيرًا بالهاتف هذه الأيام.. من يكون؟

-إنه عُمر.

-لم أسأل عن اسمه يا ندى لقد سألت عن كينونته.

-شخصٌ أعرفه.

-لا يبدو لي كمجرد (شخص) تعرفينه يا ندى!.. هيا من يكون؟

-أحد زملائي في الجامعة، لطيف ومهذب ويقول أنه معجبٌ بي.

-رائع.. هل قررتِ أخيرًا تخطي ذلك الوغد أحمد؟

-لا.. لقد رفضته.. سوف أتزوجُ سامح.

-هل قررتِ التحول لبقرةٍ كباقي البقرات يُسَقن إلى المذبح؟.. حتى البقرات لا يستسلمن للموتِ يا ندى.

-إنه مجرد زواج يا ريم.. مجرد زواج وليس موت!

-ليته كان مجرد زواج.. من الرائع أن تقضي كل ليلة بين ذراعيّ رجل تبادلينه حبًا بحب دون مشاعر أو تفريغًا لرغبة ما. الأمرُ مثيرٌ للغثيان يا عزيزتي.. لكن لديك كل الحق؛ فهذا ليس بموتٍ كما أنه ليس بزواجٍ.

-ماذا يكون إذن؟

-بغاء.

-هل أنا بغيّ يا ريم؟

-لا.. أنتِ أسوأ.. تبيعين نفسك ومبادئك وليتك تبيعينها بالثمن المستحق؛ البغايا لا يطلبن أبدًا ثمنًا رخيصًا بل يبحثن عن الأغنى، أنتِ بعتِ نفسك وأفكارك بأبخس الأثمان.

-أفكاري! الآن بت معجبة بأفكاري يا ريم؟! تلك الأفكار الرومانسيَّة التي تسخرين منها دائمًا؟!

-أنا أسخر منها، ولا أومن بها.. وليس هناك شيئًا يجعلني أومن بتفاهاتك كما أنه ليس عليكِ الإيمان بتفاهاتي يا ندى؛ الأمر كله متعلقٌ بكِ، بإيمانك الشخصيّ، بما سعيتِ -طوال حياتك- وراءه.. الآن تلقينه خلفك وكأن شيئًا لم يكن!.. وكأن كل تلك الليالي التي ظللتِ تصدعين رأسي بأفكارك الرومانسيَّة المتخلفة، وكل الوقت الذي أنفقته عليكِ أصبح كزبد البحر!

-إنها حياتي يا ريم!

-وأنا لن أتدخلُ مرةً أخرى يا ندى.. إنها مرتي الأخيرة.

-سيكون أفضل.

***

القطعة التاسعة

-١-

-سأتزوج سامح يا أبي.. سأتزوجه.

-عظيم.. لم يتبقَ سوى ريم.

-ريم؟.. ريم غير قادرة على الزواج يا أبي!

-ستُشفى قريبًا يا ابنتي.

-لا أحد يُشفى من مرضها يا أبي.

-أنا أدعو لها بكل صلاةٍ يا ندى، ستُشفى قريبًا.

-لكن الدعاء وحده لا يكفي.. لا يكفي.

-الدعاء وحده يكفي عند الابتلاء يا ابنتي.

-لماذا تتجنب أمي ريم؟

-أمك خائفة يا ابنتي؛ تحاول التعايش مع فكرة فِراقها.

-من الأفضل أن تقضي وقتًا أطول معها طالما تخشى فِراقها.

-وأنتِ يا ندى.. أتقضين وقتك معها؟

-أنا...

-أتتحدثين معها يا ندى؟.. أتدركين مدى خوفها ووحدها؟

-أنا... أنا.. بالطبع يا أبي أنا أفعل.. أتفعل أنت؟

-أنا.. أنا أعمل نهارًا ومساء يا ابنتي.. اعتني بها جيدًا يا ندى.

-بالطبع سأفعل.

-٢-

-ألن تسأليني لماذا أبكي يا ريم؟!

-أنا لن أكون موجودة دائمًا لجوارك كي أربت فوق كتفك كلما بكيت يا ندى رُبما أختفي بأي وقت.

-لن تذهبي لأي مكان يا ريم.. أنتِ بالكاد تخرجين من المترل!

-أنا لا أريد فقط الذهاب للخارج يا ندى.

-حتى لو أردتِ حالتك الصحية لا تسمح لكِ بالخروج.

-لا شيء يمنعني من الوصول لأي شيءٍ أريده.. لو أردت الوصول للسماءِ لوصلت إليها.

-أتعجب حقًا منك!.. تقضين حياتك كلها بين صفحات الكتب. تعلمين لو قلتِ بعض كلماتك تلك أمام أحد أصدقائي لسقط بحبك.

-وأنا لا أريد أن يسقط أحدهم بحبي يا ندى؛ الشخص الذي أريده سيأتي سائرًا على قدميه.. معافى تمامًا.. دون خدش.

-لا أفهم.

-أنا أتحدث عن فكرة السقوط بالحب.. أنا لن أسقط بالحب يا ندى.. أنا سأسيرُ إليه بكاملِ قواي العقليَّة والقلبيَّة.. الحبُ شيءٌ لا نسقطُ بهْ.. الحبُ شيءٌ يجعلُنا نقفُ كلما تعثرنا.. نحن لا نتعثرُ بالحبِ؛ بل نتخطى به عثراتنا.. لكني لا أريده الآن على أي حال.

-لماذا يا ريم؟!.. هل ترغبين بالجلوس دائمًا هنا؟!.. هل ترغبين بقضاء حياتك كلها في تلك الغرفة سيئة التهويَّة؟.. ألا ترغبين بتكوين عائلة؟

-أنا فقط لا أريد.

-ولو أردتِ حتى.. حالتك الصحية لن تسمح بذلك.

-قلت لكِ مسبقًا لو أردتُ أي شيء لحصلت عليه.

-ولو أردتِ الحصول على عائلة؟

-ولو أردت سُلمًا للسماء لحصلتُ عليه.

-تُعجبني ثقتكِ.

-إنها لا تعجبكِ.. إنها ببساطة (تفلقك).

-لماذا تقولين هذا؟

-لأنكِ لستِ بارعة في الكذب يا ندى.. أنتِ ازدواجيَّة التفكير.

-أنا ازدواجيَّة التفكير يا ريم؟!

-ومنافقة أيضًا.

-أنا منافقة يا ريم؟!

-تصبحين على خير.

-ريم!.. ريم.. أجيبيني يا ريم!

-...

***

القطعة العاشرة

-١-

-عدم اهتمامك بي يؤذيني يا ريم.

-لقد طلبتِ مني عدم التدخل بحياتك يا ندى فلا تلومي أحدًا سوى نفسك.

-أتـــ .. تـــ.. علمين.. أنا بالفعل بدأت أكـــ.. رهـــ..ك.

-ولماذا يتهدج صوتُكِ بالبكاء إذن؟!

-لأن الكراهية شيءٌ مؤلمٌ للغايةِ يا ريم.

-لا تكرهي أحدًا إذن!

-سأكرهُ نفسي إذا لم أفعل.

-لكنك تكرهينها بالفعل يا ندى، لو أحببتها قليلًا لما تحملتِ وغدًا كأحمد؛ لكنك بالنهاية صببتِ جام كراهيتك فوق رأسه متناسية تمامًا أنه اختيارُكِ.. لا أحد مسؤول عن أخطائك سواكِ يا ندى.. لا أحد.

-لقد كان وغدًا.

-لقد تتبعتِ حماقة قلبك يا ندى وها هي النتيجة!.. على الأقل لقد تأقلمتِ مع فكرة كراهيته الآن.

-لقد كدت أفقد حياتي بسبب فراقه لي يا ريم.. أنا أمقته بشدة الآن.

-من السهل دائمًا لوم الآخرين من أجل أخطائنا يا ندى، أليس كذلك؟!

-...

-٢-

-ريم.. لا تتركيني يا ريم.. ريم.. افتحي عينيكِ يا ريم.. ريم أنا هُنا يا ريم.

-اتركيها يا بنيتي.. دعيهم يتولون غُسلها.

-ريم لم تُمت يا أبي.. ريم ستفتح عينيها بعد قليل.. انتظر فقط قليلًا.. ستفتح عينها أنا أقسم.

-يا ابنتي...

-اتركني.. لا تمسني.. ابتعد عني.. ابتعدوا جميعًا.. لن يأخذها مني أحدٌ مجددًا.

-لم يأخذها منكِ أحدٌ من قبل يا ندى، لقد كانت إلى جوارك دائمًا.

-أنتم كاذبون.. جميعكم كاذبون وأفَّاكُون.. أنا أكرهكم جميعًا.

-لا حول ولا قوة إلا بالله!

-أين هي؟.. أين تلك المرأة.

-أي امرأةٍ يا ابنتي؟

-أمها.. أين هي؟

-لا أدري يا ابنتي.. لا أدري.

-لو رأيتها سأقتلها.. أنا سأقتلها.

-...

-ريم يا حبيبتي.. ريم هل تسمعيني؟.. أنتِ جميلةٌ للغاية يا ريم حتى عندما يقولون أنكِ ميتة.. مازلتِ جميلة للغاية كما كنتِ دائمًا، مازلتِ تشعين كالنجوم.

-يا ابنتـــ...

-لا تحدثني.. لا أحد يقترب.. لا أحد يأخذها مني، سأخرجها من هذا الحوض وسأقوم بتبديل ملابسها بنفسي، سأعتني بها حتى تعود للوعي.. اتركوني.. اتركوني.. إنها تتحدث.. أتسمعها؟.. إنها تخاطبني يا أبي.. إنها تتوسل لك.

-أفقدتِ عقلك يا ابنتي؟

-سأتوقف عن أكل الشيكولاتة أمامك يا ريم.. صدقيني.. لن أضايقك مجددًا أنا أقسم.. سأكون أكثرَ مراعاةً لمشاعرك في المستقبل، ولن أبكي مجددًا.. لن.. لن.. أبـــ.. كـــي مجددًا.. أنا لا أبكي الآن.. لا أبكي الآن.

-لقد ماتت ريم يا حبيبتي.. والموتى لا يعودون.

-بلى.

-الموتى لا يرجعون يا ندى.

-بلى يرجعون.. إنهم يعودون يا أبي.. وريم حتمًا ستعود لقد وعدتني بأننا سنموتُ سويًّا هي لن تخلف وعدها أبدًا، لا لن تفعل.

-لا إله إلا الله!

-ريم يا حبيبتي.. هيا افتحي عينيك وأنبيني كما تفعلين دائمًا، أعدك أنني سأتواجد دائمًا لأجلك.. سأحفظ كل وعودي هذه من أجلك ولن أُهزم.. لا.. لا يمكنني أن أهزم بأي شكلٍ من الأشكال، لكن قطعة شيكولاتة جديدة لن تضرني؛ قطعة واحدة أخيرة فقط يا ريم.. واحدة فقط.



لا يوجدُ شيءٌ بالعالمِ أروع من ابتسامةٍ مباغتة

كاموي جاكتو



عزيزي السيد (G)

لأن الأشياء الجيدة تحدثُ فقط لأولئك الذين ينتظرون...



-١-

عزيزي السيد (جي)،

كيف أنت اليوم؟

أتمنى أن تكون بخيرٍ وبصحةٍ جيدة

أنا حقًا لا أدري كيف أبدأ حَدِيثِي...

لقد تَرَددتُ كثيرًا في الإرسال لك؛ لأنني أعلمُ كم أنت مشغول، ولا أرغبُ بأن أكون مزعجة.

هذا خطابي الأول بعدما قَهَرتُ خَوفِي وتردُّدي قهرًا، ورُغم أنني أعلمُ جَيدًا أنَّك رُبما لن تقرأه، وإن قرأته ففرصة أن تُجيبني تكادُ تكونُ معدومةً؛ لكنني أرسلُهُ حتى وإن لم تُجب.. حتى وإن لم تقرأه من الأساس.

لقد علمتُ أنك تُعاني من الحمى، وقد تم نقلك للمستشفى.

منذ سماعي للخبرِ وأنا لا أكفُ عن البكاء.. رُبما تجدني سخيفة، ولكن الشعور بأننا من الممكن أن نفقدك في أي لحظةٍ دفعني للإرسال لك.

لقد أردت فقط إخبارك أنني لا أتخيلُ حياتي دونك.. جميعنا لا نتخيلُ حياتنا دونك.

أنا حقًا آسفةٌ للغايةِ؛ فأنا لا أجيدُ كتابةَ الخطاباتِ على الإطلاقِ، حتى الآن لا أستوعبُ أنني أُرسلُ لك أنت (السيد جي)!

طوال الأشهر الماضية لم أستطع الكتابة إليك مُطلقًا رُبما لأنك تكره النساء الثرثارات أو رُبما بسببِ رهبتي من مُخاطبتك.

لقد صَلَّيتُ لأجْلِكَ كَثيرًا.. أنا دائمًا أُصلِّي لأجْلِكَ كي تكون الأفضل.

فكن فقط بخير.. أرجوك، واعلم أننا بانتظارك عندما تستيقظ.

ملحوظة:

لا تنسَ أن تبتسم؛ فابتسامتك هي الشيء الوحيد القادرة على جعلِ عالمي أفضل.

ملحوظة أخرى:

أرجو أن تعذر إنجليزيتي السيئة؛ فأنا مازلتُ بطورِ التَعلُمِ.

-٢-

عزيزي السيد (جي)،

هذه رسالتي الثانية...

مازلتَ بالمستشفى، وأنا قلقةٌ جدًا لأجلك.

لقد صليت لأجلك كثيرًا، صديقاتي أيضًا قمن بالصلاةِ لأجلك.

لقد قمنا بعملِ تصميمٍ به صورنا؛ إنه تعويذتنا الخاصة لأجل شفاءٍ سريع لعزيزنا السيد (جي) أدرجناه مع بعض ابتهالاتنا.

أنت حقًا لا تعلم كم هذا مؤلم؛ فأنا لا أتخيل رحيلَكَ بأي شكلٍ من الأشكال.

ليس قبل أنا أقابلك.. ليس قبل أن أشكركَ على كل شيءٍ أعطيتني إياه دون أن تعلم، فرحيلكِ يعني لي انطفاء الكونِ كله.. لذلك أرجوك تحسن.. تحسن سريعًا.

لا أستطيعُ أن أُوقفَ دموعي وأنا أكتبُ خِطابي الثاني أيضًا.

لا أستطيعُ أن أوقفَ ذلكَ الشعورِ.. وكأن أثمن أشيائي.. الأهم على الإطلاق قد يذهبُ بأي لحظة.

إنه ساحقٌ للغايةِ، مؤذٍ كابتلاعِ الجمراتِ.. إنه يسحبُ روحي مع كل دقيقةٍ تمرُ.

أنا أعلمُ أنك ستتحسنُ لأجلِنا جَميعًا، ستظل تلك القوة التي تدفعنا للأمام

أنتَ حقًا لا تُدركُ الأثرَ الذي تتركهُ في نفوسِنا جميعًا.

الجميعُ غاضبٌ لأنك تُهملُ صحتك.. لدينا كُل الحق في الغضبِ منك؛

فنحن أعزائك، وأنت أيضًا (عزيزنا).

لكني أثق بك؛ أثق بأنك ستكون دائمًا إلى جانبنا ولن تتخلى عنا.

ملحوظة:

أريد أن أرى ابتسامتك مرةً أخرى، أرجوك؛ فهي التي تجعلُ كل شيءٍ في حياتي بمكانه الصحيح.

ملحوظة أخرى:

لا تُغادرني أرجوك...

-٣-

عزيزي السيد (جي)

إنه خطابي الثالث...

كنت أرجو أن تتحسن سريعًا فلا أضطرُ لإرسالِ رسالةٍ ثالثة

هل ستطول فترة مرضك!.. أنا أدعو، أنا أبتهل.. أنا أتوسل لأجلك.

وربما ليس لأجلك أكثر ما هو لأجلي (أنا)؛ فأنا شخصٌ أنانيٌ للغاية.

ربما الآن بدأت باعتباري مجذوبة! أنا كذلك ولن أُنكر.

اليوم بطريق عودتي للمنزل راقبتُ السماء حتى ظهر أول نجمٍ لامع متمنية لك الشفاء.

إنها أحد خرافات بلدتي؛ يُقال: (مع ظهورِ أول نجمٍ بالسماءِ كل ليلةٍ تتحققُ أمنيةٌ).

ظللت طوال الطريق أفكر بك، رُغم الإجهاد الذي كنتُ به، فهذا هو يومي الأول بعملي الجديد؛ لقد أصبحتُ طاهيةً بدوامٍ جزئيٍّ.

أليس هذا رائعًا؟

عند عودتي للمنزل انقطع التيار الكهربائيّ.. فوقفت أطبخ في الظلام.

لدي اعتقادٌ راسخٌ بأن أعظم الأكلات تلك التي نطهوها في الظلام؛ نحن حقًا لا نعلم ماذا نضع بالضبط بالإناء، ولكننا نحاول التخمين، نتعثر وربما تحترق أصابعنا.. لكننا لا نستسلم؛ نناضل حتى النهاية.. حتى نظفرُ بطبقِنا المُتعب، نظفرُ بالمذاقِ الأروع على الإطلاق.

لقد احترقت أصابعي عدة مراتٍ عندما شردتُ مفكرةً بك.. رُغم تديني لا أذكر أنني ابتهلت إلى الرب من قبل إلى تلك الدرجة!

أتعلم، أنا استمتع كثيرًا بالطهي رُغم أن صديقاتي يستنكرن ذلك، يقلن لي أن أظافري ستتضرر ويدي ستفقد نعومتها لكني لا أهتم لأقوالهن.

ليس هذا الشيء الوحيد الذي يستنكرنه؛ فأحيانًا يستنكرن حبي لك، ويسخرن من بكائي لأنك بالمستشفى!

لا أحد يعلم ما الذي يعنيه لي (الـــــــسـيـــــد جـــــي).. وكيف لهم!.. وكيف لأي شخصٍ أن يفهم ما أشعر به!

لا أحد يستطيع معرفة ما فعلته لأجلي حتى أنت!

أتعلم لو كان بإمكاني إعطائك قوة سحرية ما؛ فأنا أريدُ إعطائك إمكانية رؤية نفسك من خلال عينيي، كي تُدرك حق الإدراك كم أنا شاكرة لميلادك.. لوجودك بالحياة.. كم أنا شاكرة لوجودك بحياتي.

لقد أعطيتني حياةً جديدة، كنت كشُعاعِ ضوء اخترق تلك الظُلمة المحيطة بي، كنت تلك النيران التي صرعت ذلكَ الجليد الذي غلفني طوال العمر.

كلماتك.. بمجرد سماع صوتك تتحدث، تضحك، تحكي عن حياتك؛ كل هذا يثبت لي أن جميع الأحلام بإمكانها التحقق، يجعل دفئًا لم أشعر به طوال حياتي الماضية ينمو داخلي.. يطمئنني.

وعندما تبتسمُ فجأةً.. لا أستطيع منع نفسي من الابتسامِ معك.

دائمًا ما أحتفظ بجميع ابتساماتي لك؛ أبتسمها فقط عندما يذكر أحدهم اسمك، أو تذيع أحد الإذاعات أغنية لك فجأةً، أو أرى صورةً لك بغتةً.

فأنا عاشقةٌ لك.. لكل شيءٍ بك؛ طريقة تناولك الطعام، اختلاجات وجهك، محاولتك إخفاءً إحراجك عند الأسئلة العسيرة، طريقة ابتسامك وصوتك وحديثك.. حتى أنني أجدك في الكثير من الأحيان أكثر جاذبية وأنتَ تأكلُ دون أي شيءٍ آخر!

كما أنني أحبُ سماعَ صوتِكَ تتحدثُ حتى وإن كنتُ جاهلةً بما تقول!.. مجرد سماع صوتك تتحدثُ يجعلُ قلبي يتوقفُ عن الخفقان.

وعندما تبتسمُ أشعرُ وكأن ملايين السهام صُوبت إلى قلبي فجأةً.. لا أستطيع اللحاق بتلك الخفقات المجنونة التي تركض بكل مكانٍ بقلبي.

هل انتابك يومًا شعور وكأن قلبك سيغادرك من الولع؟

طوال حياتي لم أجربه حتى صادفتك.. بعدها بات كل شيءٍ تفعله، كل شيء أشاهده لك أوشمه داخلي.

فأنا لطالما آمنت أن هناك بعض الرجال -بعض الرجال فقط- خُلِقوا لغزوا البلاد.. لبناء تاريخٍ جديدٍ.. وقد خُلِق آخرون لغزوا القلوب، لتكوين جيلًا منَ العاشقَات. لكني بحياتي كلها لم أرَ رَجُلًا

خُلق للأمرين معًا أبدًا حتى وقعت عيني عليك.. وقتها أدركت مدى حماقتي وجهلي.

لذلك أرجوك كن بخير لأجلي.. أنا لا أريد أن أبكي مجددًا، أريد أن أعود للابتسامِ مرةً أخرى.

ملحوظة:

بانتظار ابتسامتك.. كي تُحي ابتسامتي من جديد.

ملحوظة أخرى:

سأظل أصلي؛ حتى تعود سالًما لنا.. حتى تعود سالًما لي.

-٤-

عزيزي السيد (جي)،

كان من المفترض أن تبدأ اليوم جولتك الغنائية بأمريكا لكنك مازلت -كما أنت- بالمستشفى. مازالت تلك الأنابيب اللعينة متصلةً بك.

مازال ذلك المحلول يضخُ لدمك.. مازال تنفسك بطيء ونبضاتك ضعيفة.

كل يوم أُصلي من أجلك.. كل يوم أبتهل وأنا واثقة أن الله حتمًا سيستجب؛ فأنا لدي يقين.. لدي كل اليقين أن الأشياء الجيدة تحدث فقط لأولئك الذين ينتظرون.

اليوم راقبت السُحب.. هل تحب مشاهدة السُحب؟

أنا أحب السحب كثيرًا.. كذلك القمر والبحر؛ اعتدتُ وأنا صغيرة التحدث مع البحر والإفصاح عن كل شيءٍ أمامه، وأحيانًا البكاء والشكوى له!

ربما لأن هناك رجلٌ أخبرني يومًا أن البحر أفضل صديق؛ فهو لا يُفشي أبدًا سرًا.

كذلك القمر.. إنه صديق الأشخاص الذين يميلون للعزلة مثلي.

لذلك أنا لدي الكثير من الأصدقاء الوحيدين مثلي.. أنا لدي: السماء، السحب، القمر، الشتاء.. والبحار والأمطار والثلوج –رُغم أنها لا تُمطرُ ثلجًا ببلدي.

لكن المطر صديقي الأفضل إذا تجنبت كونه موحش للغاية.

أتعلم لقد تمنيت دائمًا رجلًا يسيرُ إلى جواري تحت الأمطار دون مظلة،

أقسمتُ أنني لن أتركَ يديه أبدًا لو فعل.

ربما تظن أن تلك الفكرة الرومانسيَّة شائعة لدى الكثيرين؛ ولكن حتى وإن كانت شائعة صدقني قلة قليلة فقط يفعلونها حقًا.

أنا لا أصادف الكثير من تلك النوعيَّة؛ هؤلاء الذين يسيرون تحت المطر بسعادة غير عابئين بقطرات المطر التي تُغطي ثيابهم، معاطفهم الثمينة أو الرخيصة.

بطريقةٍ أو بأخرى أشعر أنهم يجدون السعادة في تلك الأشياء البسيطة، تلك الأشياء التي لا يُدركها غيرهم.

السيرُ تحت المطر، مشاهدةُ البحرِ دون السباحة، أو السباحة في ضوء القمر.. كوب قهوة في ليلةٍ باردةٍ.. الصمت مع الاستمتاع بدفء الآخرين.

كل تلك الأشياء البسيطة تُشعرهم بالامتنان والسعادة رُغم تفاهتها في نظر البعض.

إنها البهجة التي يفتقدونها ولا يعلمون أن اسمها بكل بساطة: الـ(بساطة).

عندما يسألونني عن أهمية السير تحت الأمطار لا أجيب.. فقط أتأملهم كثيرًا مفكرة: هل حقًا يستحقون أن أشرح لهم أهمية اللحظات المشتركة تحت المطر؟!

لقد تأملت السماء كثيرًا اليوم، راقبت السُحب حتى وجدت سحابة كبيرة تُشبه كعكة زفاف الأميرات أرسلت لها قبلة، ورجوت أن تعود لوعيك لتنظر لها أيضًا. صليت كي تُراقبُ السُحب مثلي في ذلك الوقت وكأنني أرجو أن نكون على اتصال بشكلٍ من الأشكال؛ إنه نوع يائس من الحب والاحترام ذلك الذي أكنه لكِ.

أتجدني غريبة؟

صديقاتي يقلن أنني غريبة، ويقلن أيضًا أنني لو تمكنت من الوصول إليك يومًا لن يستمر ذلك الهيام المزعوم في نظرهم؛ يعتقدن أنني غير قادرة على حب أي شيء أو أي شخص.

ولكن المشكلة لا تكمن باعتقاداتهم؛ المشكلة تكمن في خوفي من التورط مع الرجال؛ أخشى أن يعاملني أحدهم كشيءٍ مسلمٍ به، أخشى ألا يرى الرجل الذي أحب كل ما أفعله لأجله.. ألا يُقدره.. إنه (التقدير).

أنا لست جيدة بأقوال الحب، لا أستطيع ترديدها، كذلك معظم تصرفاتي تكون أقرب للبرود.

أنا فقط لا أستطيع الانفتاح مع الجميع.. مهما قصصت على البعض بعض قصصي هذا لا يعني قربهم مني؛ أنا متباعدة دائمًا لأنني أعاني من أزمة كبيرة بالثقة.

أحيانًا أشعر وكأنني غير قادرة على الثقة بأي مخلوق حتى ظلي فهو إلى جانبي وقت الأضواء فقط، لكن بالظلام يُغادرني كما يغادر الجميع.

مَن يعلم! رُبما الأمر لا يتوقفُ فقط على الثقةِ بالحبِ والرجال!

اعتقدت أنني وقعت بالحب عدة مرات، ولكن الأمر لم يستمر لفترةٍ طويلة؛ كان دائمًا قصيرًا، مؤلمًا، ومؤذيًا.. كنت أردد دائمًا لنفسي: كل شيء يحدثُ لسبب.. تذكري.. كل شيء يحدثُ لسبب حتى وإن لم نعلمهُ، حتى لو كدنا نجن بسبب جهله. كُل شيء يحدثُ لسبب حتى وإن كنا نحتضر، ولو أدركنا الموت ولم نعرفه يومًا.. لكنه -حتمًا- يحدثُ لسبب!

لهذا السبب ابتعدت عن الحب تمامًا فما مررت به يفوق قدرتي على التحمل.

التحمل!.. إنه هذا الشعور الذي يجعلنا نبذلُ ما بوسعنا تجاه أشخاص آخرين رُبما لا يستحقون ما نفعله لأجلهم.

التحمل!.. هو أن نُعطي أشخاصًا آخرين مشاعرنا ودفئنا وحبنا رُغم ما نأخذه من قسوتهم.

يمر الوقت وهم لا يشعرون.. نظل فقط بنظرهم مجرد أشخاص يتحملونهم.. لا فائدة لهم سوى التحمل.

يضغطون علينا، ويسحقوننا، يمتصون عاطفتنا وبالنهاية..! لا شيء.. نكون لديهم مجرد كلاب حراسة؛ متواجدون دائمًا لخدمتهم.

مهما بكينا، تألمنا، تحملنا.. نفعلُ كل هذا في صمتٍ كي لا نزعجهم. نرضى بظلالهم حتى نصل إلى النقطة الأخيرة وهي سعيهم وراء آخرين يطلبون رضائهم!

بمنتهى البساطة نُمحى من ذاكرتهم.. يتركوننا بذلك الركن المظلم في حياتهم والعطن يأكلنا.

نكون مجرد صندوق علاه الصدأ مغلق مدفون بأعماقهم.. هذا إذا لم يتخلصوا من الصندوق بإلقائه في أقرب سلة للمهملات!

ألهذا أحببتك؟

لأنك بعيدٌ للغاية؟.. لأنك غير قادر على إيذائي بأي شكلٍ كان؟

أنا لا أعلم؛ فبالنسبةِ لي طالما كان الحب شعورًا يبتلع صاحبه، يجعله مقيدًا بنبضاتٍ ليست نبضاته، وأوردةٍ ليست أوردته.

إنه كالحُلم؛ لا تستطيع معرفة السبب الحقيقيّ ورائه، ومهما تعدد مفسريه لن تتمكن من تحديد أيهم على صواب وأيهم على خطأ!

لهذا لم أحاول تفسير حالة الهيام التي أمرُ بها، فقط أتركها وشأنها.. أشعلُ شموعًا متعبدة بمحراب حبك في صمتٍ وهدوء متفهمة كلمات صديقاتي؛ رُبما لأنني أعلم جيدًا أن البعض نحبهم لكن لا نقربهم، فهم أروع في البعد، أرقى.. وأحلى؛ وعندما نقترب منهم.. يتساقط بريقهم.

نظل نُصارع كي نحظى بنظرةٍ واحدة.. بموعدٍ واحد، بلقاء؛ وما أن نحصل على ما نُريد يتكسر ذلك البلور الرقيق الذي غلّفهم بالماضي. يجعلنا نرى فيهم البشرية المجردة من كل التقديس الذي أضفناه على صورهم البعيدة اللامعة.

لكن رُغم علمي هذا بأن الجميع رائع ولامع في البعد فقط إلا أن قلبي يخبرني أنك مُخْتَلِف، أنت تختلف عن الجميع؛ ولولا تلك اللحظات التي تغضب بها، ولولا دموعك وابتساماتك لاعتقدت أنك تنتمي لجنسٍ آخر غير جنسي هذا.

صديقاتي يسخرن أحيانًا —وربما دائمًا— لكنني لا أهتم؛ فلقد فقدت التواصل مع الجميع منذ زمنٍ بعيد.

حتى أنني عندما أشعرُ بالحزنِ، أو أكون على وشك البكاء؛ أركض نحوك.. نحو كلماتك وكتاباتك. أردد: ابتسمي.. ابتسمي.. ابتسمي؛ لكن أحيانًا أجد أن الابتسام أكثر إيلامًا من ترك العِنان لدموعي.

أمد يدي ببعض الأحيان لشاشة حاسوبي محاولة لمسك.. محاولة فقط التأكد من أنك حقيقيّ ولست من صنعِ خيالي.

هل خيالي هو الذي صنعك؟

رُغم أنني لا أستطيع تحديد شيئًا عنك لكنك حقيقيّ بالفعل حقيقيّ! ألست كذلك؟!

أنا لست ذلك النوع من المعجبين التي قد تقضي نهارها تفكر في أي الألوان تحب وأي الأطعمة تكره!

ليس لأن لدي أشياء أهم لأفكر بها؛ بل أنني أشعر وكأن هذا التفكير قد يزعجك!

أنا لم أكن يومًا معجبةً بأحدٍ من الأساس!

لم أحاول التواصل مع كاتبٍ مفضل من قبل.. مع فنانٍ مفضل من قبل.

أنا حتى لا أدري إن كان هناك بالفعل شخص مفضل في حياتي كلها!

لكنني الآن سمحت لنفسي ببعض التفكير بك، والدعاء لك؛ بل سمحت لنفسي بمراسلتك، وكأن كل تلك المشاعر التي اختزنتها بالماضي وقمعتها قمعًا أرادت أن تطير إليك.

وقد سمحت لها بالطيران، سمحت لها بالفكاك من سجني لتُحلّق من أجلك، علها تصل للسماء، لمسامع الرب.. علها تكون السبب في شفائك.. شفاء عزيزي (جي).

من الطبيعي أن يصيبني الهوس لو كنتُ مراهقةً بالمرحلة الثانويّة؛ لكنني الآن امرأة ناضجة.. امرأة على أعتاب سنتها الثالثة والعشرين!

أهو هوسٌ متأخرٌ؟

لا أظن؛ فأنا طوال الفترة الماضية ظللت أكبحُ خيالاتي عن لقائي بك وإن كنت أتوقُ إليه.

كما أنني كبحت رغبتي بالخروجِ برفقتك في موعدٍ كما أرى جميع معجباتك يفعلن!

كنت أحاولُ فقط أن ألتمس لنفسي بعض التعقل في حبك، وإعجابي بك، واحترامي لك محاولة ألا أزعجك وألا أطاردك.. أدع كل شيء لقدري.

لن أرسم لنفسي قصة رومانسيَّة خياليَّة معك؛ فالقدر دائمًا يكتب لنا قصص أروع مما تنسجه مخيلتنا.

أتعلم لقد حلمت بك مرةً واحدة.. كنت بمدرسة ما مهجورة نائمة في سريرٍ غريب فتحتُ عيني ببطء؛ فوجدتك تمرُ أمام الغرفة فأشرتُ لك.

صوتي كان ضعيفًا خافتًا يخرجُ بأعجوبةٍ لهذا لم تسمعني، تجاوزت باب الغرفة وأنا بالسرير أمد يدي نحوك وقد انعدم صوتي تمامًا.

حاولت الصراخ باسمك لم أستطع، كدت أبكي؛ لكن فجأة وجدتك تعود لتقف أمام الباب، ثم تقدمت نحوي بابتسامة لطيفة عندما وجدتني أمد يدي نحوك.

جلست بجواري، وانحنيت قليلًا وكأنك على وشك إعطائي قبلة؛ فأدرت وجهي بعيدًا. وعندما نظرت لك مجددًا كنت تبتسم ابتسامة أكبر وألطف.

رفعت يدي لأضعها فوق رأسك وعبثت بشعرك قليلًا.. خصلات الحمراء داكنة قصيرة وناعمة.

أخبرتك وأنا أسحب يدي سريعًا: هذا هو كل ما أرغب بفعله.

إنه حُلمٌ غريبٌ!.. لكنني أشتعلُ سعادةً.. لقد أتيت (لـــــي)! لقد وعدتني أنك ستأتي لرؤيتي مجددًا.

لكنك تأخرت كثيرًا.. مرت ثلاثة أشهر منذ ذلك الحُلم لكنني أنتظر.

أتعلم ما حقيقة شعوري نحوك؟

أشعر وكأنني قابلتُكَ من قبل. في مكانٍ ما، بعالمٍ ما، وكأن روحي متصلة بك بشكلٍ أو بآخر.

أنا فقط أشعر وكأنني غير قادرة على مفارقة الشيء الوحيد الذي لا يمر نهاري وليلي دون أن أفكر به.

رُبما لهذا سأظل منتظرة، حتى وإن انتظرتُ للأبدِ.. أنا فقط سأنتظرك لأنك الشيء الوحيد الذي أعبئ به نابضي.

ابتساماتك هي الشيء الوحيد القادر على شحن طاقتي، وصوتك هو الشيء الوحيد الذي يجعلني أتمسك بحياتي.

ملحوظة:

هيا عُد لوعيك سريعًا؛ فأنا بانتظارك.

ملحوظة أخرى:

ربما لن تقرأ خطابي هذا لكن وإن.. وإن حدث وقرأته يومًا؛ فأنا أرجو أن يجعلك تبتسم ولو قليلًا، أرجو أن ينقل لك بعض مشاعري.

-٥-

عزيزي السيد (جي)،

هذا خطابي الخامس...

كيف حالك اليوم؟

هل تتألم؟.. أم فقط تسبح في سحابات بيضاء ولا تشعر بأي شيء؟

كل يوم أغفو به أرسلُ روحي إليك؛ علها تصل لروحك، علها تخبرك كم أنا أُحْتَضَر وأنت بالمستشفى.

أنا الآن أبكي؛ فمنذ قليل شاهدتُ حفلًا قديمًا قدمته. وقتها رُبما كنت بالصف الخامس إن لم أكن أصغر!

لم أعلم أنك موجود.. أنك هُناك.. في بلدٍ آخر تجتهدُ وتفعلُ ما بوسعك لتقتنص النجاح اقتناصًا.

لو علمت فقط بشأنك، لو رأيتك وأنت تعمل حتى تفقد الوعي تعبًا لأصبحت أفضل في حياتي.

لأصبحت طفلةً متفوقة.. لكني بالفعل كنت متفوقة حتى المرحلة الثانويَّة.

منذ ذلك الوقت وأنا أفتقد القدوة في حياتي. لقد كنت برعمًا لفتاة ذات مستقبلٍ مشرق؛ ولكني ضللت الطريق؛ لأنني ببساطة كنت وحدي.

طوال مراهقتي افتقدت للقدوة...

أنا لا أحاول أن أبدو لك كفتاة تُعاني.. فأنت عانيت أكثر مني مليون مرة، لكنني أثقُ بشيء واحدٍ فقط؛ الرب فقط يعطينا مادة خام للسعادة لا حدود لها لكننا فقط نجهل كيفية تصنيعها.

كما أن الرب يهب كلٍ منا معاناة تماثل قدرة تحمله؛ إنه فقط قدرنا يا نَفِيسي (جي)؛ كلٌ منا يُعاني على طريقته.

أتعلم.. لم أكن ذلك النوع من الفتيات المهوَّسات بالمطربين والفنانين والكُتَّاب؛ بل كنت أقرب لعثة الكتب. أهربُ بالقراءةِ من كل شيء، الهروب هو الشيء الوحيد الذي أجدته بذلك الوقت.

أما الآن فأنا لست بحاجة للهروب مُطلقًا.. أتعلم لماذا؟ لأنك هُنا، لن تتركني؛ لأن صوتك هُنا يحميني، لأنك تُعطيني بلايين الأسباب للتطلع لغدي، لأنك تعطيني بلايين الأسباب للاستمرار بالحياة، للقتال.

أشعر وكأنني أسيرُ بظلك؛ لطالما تُقت لذلك الظل الذي سأسير به، ذلك الظل الذي يُلهمني، يُعلمني، يحميني.. يجعلني فقط لا أتوقف عن (الأمل).

فرُغم هروبي من كل شيء.. رُغم ضعفي الخفي؛ إلا أنني الآن أوقن تمام اليقين أنني قويَّة -بل الأقوى على الإطلاق- فقط بوجودك.

لم أكتشف إلى أي مدى قد أصبح قويَّة، قد أصبح شيئًا صلبًا صامدًا بوجهِ أي شيءٍ وأي شخصٍ إلا عندما عثرتُ عليك.. لهذا أنا قويَّة الآن؛ لأنك هُنا، لأنك معي.

تلك القوة رُبما فقدتها سابقًا بسبب افتقاد الثقة بالآخرين؛ لشعوري الدائم بأن الجميع يحاولُ كسري لإثبات قوتهم.

إنه نوع من تجنب الأذى الذي طالما سعيت إليه بيقينٍ ثابت؛ فأنا أخافُ الألَمَ كثيرًا، واعتقدت دومًا أن آلام الوحدة كبيرةٌ للغاية لكن آلام الفراق أعمق وندوبها لا تُمحى أبدًا.

لماذا اختلف الأمر الآن؟

بت أشعر وكأن آلام الفراق لا شيء إلى جوار آلام الوحدة المقرونة بآلام الاحتضار.

إنها إحدى الـ(فوبيات) التي أعاني منها؛ فكرة (الموت وحدي).. مجرد ذكرها ينتابني هلعًا كبيرًا لا أستطيع منه خلاصًا.

أن تموت وحدك ولا يكتشف أحدهم موتك.. أن تظل تُحْتَضَر وتتألم دون أن يقوم أحدٌ بنجدتك. لكنني بنفس الوقت أخشى الاقتراب من الناس.

إنه نوع معقد من المشاعر (الحاجة للبشر وبغضهم بنفس الوقت)!

أتجدني مجذوبة؟

ربما.. أنا أوقن أن الرب خلقنا ثنائيات كقطع الألغاز.. كل منا نصف له نصف آخر يكمله؛ هناك بعض الأشخاص يظلون سويًّا رُغم

أنهم لا يُكَمِّلون بعضهم البعض!.. فقط يستمرون بالحياةِ هكذا. لذلك بعض الأشخاص يصبحون وحدهم؛ لأن نصفهم الآخر تورط -عن طريق الخطأ- مع شخصٍ آخرٍ.

أنا أخشى التورط بالخطأ مع أحد، كما أخشى أن أظل وحدي دون ذلك النصف، أنا فقط أنتظره وأظل أردد وأكرر: (أنا لست بحاجة لرجلٍ قويٍّ فقط؛ بل أنا بحاجة لأقوى الرجال) رُبما كي يجعلني أشعر بضعفي وحاجتي للحماية، جميعنا بحاجة للحماية بصورةٍ أو بأخرى.

هل.. هل ستسخر لو قلت أنك أقوى الرجال بنظري؟.. هذه ليست محاولة رخيصة للمغازلة.. يشهدُ الرب أنني أعني كل كلمةٍ أقولها لك.

أنا لم أحاول فك طلاسمك، لم أحاول تحليل شخصيتك. أريدك أن تظل هكذا؛ تلك القوة الغامضة الغير آدميَّة التي تطوقني (تعويذتي الحامية).

أتساءل أحيانًا: هل من الممكن أن تكون خرافة؟

هل أنت خرافة بالفعل؟

هل أنا مجرد شخص مجنون يتخيل وجودك!

حتى وإن كنت؛ فأنا أريد أن أهب عمري رهن خرافتي تلك.

أحاول ألا أبكي وأنا أكتب لأجلك...

عزيزي السيد (جي).. لقد أطلت الحديث وأنت تكره الثرثرة.

أنا لست ثرثارة بطبعي صدقني؛ ولكني لا أستطيع السيطرة على يدي وهي تكتب لك.

سأتركك الآن مع قبلة فوق جبينك أرسلها لك عبر رسالتي؛ رُبما تمنحك بعض القوة والصمود بوجه المرض.

ملحوظة:

أرغبُ برؤية ابتسامتك.. أريدُ أن أرى الكثير من الابتسامات الرائعة.

ملحوظة أخرى:

شكرًا لكونك هُنا...

حتى وإن كنت بعيدًا للغاية؛ لكنك دائمًا تحميني.

-٦-

أميري (جي)،

اليومَ أرسلُ لك خطابي السادس...

حاولت منع نفسي من التحدث إليك؛ سبعة أيام لم أرسل لك خطابًا واحدًا!

كنت أريد أن أعطيك فرصةً للشفاءِ ولكن يبدو أن تلك الفترة ستطول.

الأمل بقلبي بدأ يخفت في أنك قد... أنك قد تعود لي.

إنه صعبٌ للغاية أن تكتب لأنفس الأشخاص بحياتك وأنت تعلم أنه متصلًا بأجهزة عقيمة غير قادرة على شفائه؛ بل والأصعب كتابتك لهذا الشخص الذي لن يتكرر بالحياة كلها مرتين، وأنت تعلم من كل قلبك أنه لن يقرأ ما تكتبه، وإن قرأه رُبما لن يجيب.. هذا الشعور قد يهشم كل سعادتك.

لكن أتعلم ما الشعور الذي يميتني الآن؟

شعوري بأن ذلك الشخص الذي أحب، وأعشق، وأحترم، الشخص الذي أكتب له بكل جوارحي، الشخص الذي يجري مني مجرى الدم، الشخص الذي أعبئ نابضي بابتساماته وصوته وكلماته؛ الشخص الأهم والأنفس والأعز والأغلى على الإطلاق قد يُغادر للأبد.

فقط لو أمتلك القدرة على نقل جزء من روحي إليك، أو نقل روحي كلها إليك، نقل حياتي بأكملها لأضعها بين يديك -كي أحظى بابتسامة أخيرة قبل مماتي- سأفعل؛ لأنني ببساطة ليس لدي (سواك)، ولا أريدُ (سواك)!

لهذا أرجوك فقط تشبث بالحياةِ قليلًا، أريدُكَ أن تبقى إلى جواري حتى وإن لم تقرأ حرفًا واحدًا مما أكتب.

كنت أتمنى أن أكون إلى جانبك بمرضك، أمررُ أصابعي فوق خصلاتك وفوق جبينك، أمسكُ بيدك، وأخبرك أنك لست وحدك.

أتكلم بأي شيء.. أقل لك أن هناك ملايين حول العالم يبكون لأجلك، يبتهلون لأَجلك، ويتألمون لمرضك؛ بل ويُحْتَضَرون مثلي الآن.

لقد قاومت المرض كثيرًا، كنت ذلك المقاتل الذي يقهر كل شيء؛ خوفه من المياه رُغم تعرضه للغرق مرتين، طفولته البائسة.. ورُغم كل ما مررت به مازلت تدعونا للابتسام دائمًا!

تدعونا كي نحافظ على ابتساماتنا، ولا نتركها أبدًا؛ لكن لماذا الآن أشعر أنك مستسلم ذلك الاستسلام الأحمق؟!

أريدُ أن أطير إليك، أهزك بعنف أصرخ بك: هيا أفق.. هيا أفق أنا لا أريد أن أبكي مجددًا.. لا أريد أن أكون وحدي مجددًا.

هل كل شيء متعلق ببكائي وحزني ووحدتي؟ ربما؛ فأنا شخصٌ أنانيٌّ للغاية.. أعتقد أنك كذلك أيضًا؛ فكل شخص منا أنانيّ بطريقةٍ ما، كاذب بنسبةٍ ما، مراوغ وذو وجهين بشكلٍ من الأشكال.

دائمًا ما كنت أتساءل: كيف هي شخصيتك الحقيقية؟

هل أنت مرح؟ مجنون؟ سادي؟ رحيم؟ أخلاقيّ؟

مليون فكرة يا سيدي تمرُ برأسي وأنا أراقبُ اختلاجات وجهك في بعض البرامج، ابتسامتك، تفكيرك. أتأمل إجاباتك البطيئة والمتمعنة تارةً، والسريعة والمتهورة تارةً أخرى.

أحيانًا تبدو لي سيلط اللسان لاذع الحديث، وأحيانًا أخرى أراك سهل المعشر لطيف الحكي؛ أنت تلك الكتلة المتناقضة الجحيميَّة التي تُطاردني بواقعي وأحلامي.

لكنك لم تأتِ لي مرةً أخرى بحلمٍ جديدٍ كما وعدتني! أنت لا تخلف وعودك أبدًا؛ إذن لماذا تأخرت؟!

هل أنا مجنونة؟! ربما.. أنا فقط مُهَوَّسة بك!

ولا أدري متى بدأ كل شيء، حقًا لا أدري متى بدأ؛ رُبما عندما أتتني الرغبة بمفارقة الحياة، نعم على الأرجح بذلك الوقت.

وقتها كنت أعرفك كـ(جي)، ذلك الشخص الوسيم للغاية الذي ما أن رأيت صورته لأول مرة حتى أثار فيَّ الذعر؛ وكأنني أشاهد نموذجًا لأميرٍ خرج لتوته من أحد أفلام الرسوم المتحركة.. جمالًا خرافيًّا أصابني بالخوف.

لكن كل هذا تبدل تمامًا ما أن رأيتك للمرةِ الأولى تشع وسط أضواء المسرح، تلك الأضواء الغريبة الزرقاء.

خصلاتك الحمراء المتناثرة، طويلة تنسدل لتغطي حاجبيك، بينما تقصر كلما تدرجت للخلف.

عينك الزرقاء، وتلك السترة الجلدية السوداء ممزوجة باللون الفضيّ.

كنت تغني، تصرخ.. تتألم؛ وقتها شعرت أنك ذلك الشخص الملعون بالجمالِ الشيطانيّ.. كنت كشيطان جحيميّ تمت معاقبته بالفردوس!

لقد أحرقني صوتك رُغم أنني لم أفهم كلمةً واحدةً من غنائك.. كان كصب الحمم داخل قلبي؛ مؤلمٌ، شهيٌّ، ساحقٌ، جبارٌ.. قصيٌّ.. دنيٌّ.. إنه فقط جنونيّ.

شعرت وكأنني معلقة بفضاء أسود لا يوجد به ذكرى واحدة سعيدة.

لكن هناك في الأفق البعيد تلمع نقطة بيضاء واحدة، وأنا مكبلة ببلايين القيود الشوكيَّة.. كل ما أستطيعه فقط الصراخ باسمك.

لقد أطاح صوتك بسلامتي العقليَّة، أقسم لقد حاولت سد أذني أكثر من مئة مرة؛ ولكن كلما ابتعد صوتك؛ وجدت نفسي أفتح أبوابي من جديد.

أترك أسواري لأخرج في إثره لأطارده محاولة اصطياده.. دون نفع، دون أمل، ودون خارطة ترشدني لطريقي الصحيح.

لقد صرخت معك، وبكيت معك كما بكيت وقتذاك فوق المسرح.

يومها لم أرغب من الأساس بالحضور لولا إعطاء صديقة لي تذكرتها لأنها مريضة. طلبت مني الحضور ومحاولة الحصول على تلك السُترة التي ستلقيها لـ(عزيزاتك).. إنها أيضًا تُحْتَضَر بحبك.

لقد حصلت على السُترة بالفعل، لقد قاتلت كي أصل لها. لا أذكر كم الفتيات التي دفعتهن لكنني بالنهاية استوليت عليها وكنت على استعداد لإراقة دماء الجميع من أجل الوصول لها!

إنها الآن بجانبي، لم أعطها لصديقتي فأنا أنانية كلما قلتُ لك قبلًا.

أتعلم مازال عطرُكَ عالقٌ بها. كلما تشممتها شعرت بافتقاد.. بافتقاد شيءٍ ما؛ رُبما بسمتك.. رُبما ارتجاف صوتك.. رُبما كل شيءٍ بك؛ ومنذ ذلك اليوم وأنا تركت فكرة تركي للحياة بشكلٍ نهائيّ.

أستطيع أن أخبرك ببساطة بأنك: (أنقذت حياتي بأغنية).

لا أستطيع إدراك كيفية تسللك إلى قلبي، كيفية تَشَرُّب روحي بك!.. لقد أنقذت حياتي مرةً فملكتُ قلبي للأبد!

لم أكن أكثر من مجرد شخص متقوقع، بارد، فقد كل شيء، ولم يعد يبالي بأي شيء؛ حتى رأيتك تغني معتصرًا لذاتك، تضع قلبك بكل حرف تتفوه به.. تلمع عينيك بالدموع مع كل أغنية حتى فقدت الوعي، بتلك اللحظة شعرت أن قلبي سيتوقف للأبد.

لقد صمت الجميع لثوانٍ ثم انفجروا بالصراخ والعويل؛ ولكني ظللت متسمرة بمكاني غير قادرة على الحركة على الصراخ.

لم يخرج من فمي سوى أنّات خافتة، ولم أستطع السيطرة على ارتجاف شفتي وذَقَني.. انفجرت في بكاءٍ حار، وأنا أضم سترتك لي وكأنها الشيء الوحيد الذي أملكه بالعالم.

لقد بكيت كما لم أبكِ من قبل شاعرة بمدى سذاجتي، وتفاهتي.. لماذا عليّ أن أفارق الحياة وأنت بكل ما مررت به مازلت تُغني، تفعل ما بوسعك.. مازلت تعمل لأجل الترفيه عن الجميع؟!

ثم وجدناك تصعد من جديد، تغني وترقص وتشع باذلًا مجهودًا أكبر من المجهود السابق!.. يومها رجعت لمترلي وبدأت أقرأ عنك كالمجذوبة، أفتش بجميع المواقع، استعين بالمترجم الفوري، حتى أنني بدأت بتعلم الإنجليزيَّة بجديَّة!

اشتركت بأكثر من موقع لمعجبيك، وتعرفت عليهم جميعًا كي أعلم كل شيء عنك!

قدرتك على النفاذ لمشاعري بذلك اليوم.. كونك الشخص الوحيد الذي جردني من يأسي، ونزع عني أفكاري السوداء، كل ما فعلته بذلك اليوم جعلني غارقة بحبك.

لقد غرقت بحبك لأنك تفعل كل شيء بحب؛ لهذا يصل لنا جميعًا...

يصل لنا حبك هذا لأنك تفعله من كل قلبك، يصل لنا الأمل، وتصل لنا السعادة.. أنت فقط تهبنا العديد من الأشياء دون أن تدري.

أتعلم أنني عنفتُ نفسي كثيرًا لمجرد انطباعي الأول عنك بأنك ذلك الشخص الجميل المحظوظ؛ لكن الآن أعلم أن حياة الشهرة والمجد ليست بالجنة التي يتخيلها الجميع؛ بل هي (الجحيم بعينها)، فإذا طمح أحدهم لها فلا يعتقد أنها ستكون سهلة يسيرة ككعكة الشيكولاتة التي تأتيه كـ(مفاجأة متوقعة) يوم ميلاده بينما هو مطالب بإبداء دهشته وكأن هناك من -يا للمصادفة- تذكره دون توقع!

أشعر الآن بأنني غير قادرة على التوقف عن الحديث؛ ولكني مضطرة لهذا؛ فأنت تكره الثرثرة، ولكن ليس لدي غيرها حتى تعود لي.

أعدك أنني سأتوقف تمامًا عن إرسال الرسائل عندما تعود لوعيك...

سأتركك الآن وأنا أدعو لك بشفاءٍ عاجل؛ رُغم رغبتي في الثرثرة إلا أنني أرجو أن يكون هذا خطابي الأخير.. أريدك أن تعود للوعي مرةً أخرى.

ملحوظة:

سأبعث روحي لك الليلة عندما أنام فانتظرها؛ هي حتمًا ستحميك.

ملحوظة أخرى:

أنا فقط.. أحبك كثيرًا.

-٧-

عزيزي السيد (جي)،

لا أدري لماذا ترددتُ كثيرًا قبل إرسال هذا الخطاب...

ربما لأنني لم أعرف كيف أبدأه؛ هل أبدأه كالمعتاد بـــ: عزيزي السيد (جي)؟

أم أبدأه بـــ: أميري (جي)!

أم أبدأه بـــ: سيدي (جي)!

لكن لا يهم.. طالما أن الخطاب سيصلك بصورةٍ أو بأخرى.

أردت فقط إخبارك بأن اليوم هو يوم ميلادي الثالث والعشرين ^_^

تقول لي صديقتي أن الذين يحتفلون بميلادهم ما هم إلا مجموعة من الحمقى ترى في نقصان عمرهم السعادة الوهميَّة التي يبتغون؛ لكن من يهتم! أنا فقط ممتنةٌ للغاية.. ممتنةٌ أنك بحياتي.

طوال السنوات الماضية كنت أشعر أن رابطي بالحياة ضعيف؛ ولكن عندما سمعتك ورأيتك كل الروابط الضعيفة بحياتي تبدلت لتصبح الأكثر متانة على الإطلاق.

أنا لست وحيدة لتنعدم روابطي بالحياة بهذا الشكل الفج؛ بل لدي الحياة الأكثر صخبًا على الإطلاق، لدي تلك الحياة التي يكرهها الجميع.

أنا فتاة محاطةٌ بالصديقات والفتيان، محاطةٌ بالحبِ والعنايةِ التي لا أُقدرها، ولا أهتم لها.

هو مجرد شعورٌ داخليّ بأنه رُغم كل ما تقدمه لك الحياة من نِعَم أنت ناقم عليها، ولا تُريدها.

ولكن أحيانًا أحس أن كل هذا الحب الذي أتحدث عنه مجرد هُراء، مجردُ شيء أخدعُ نفسي به كي يشعرني بأهميتي.

في أغلب الوقت أشعر بوحدةٍ متناهية.. بشعورٍ غبيٍّ موحش.

وكأنني أناشد شخصًا ما، حبًّا خرافيًّا مجهولًا.. وكأنني لا أريد حب هذا وذاك ولكني بانتظار شيءٍ غامض؛ كأنني أُبحر بقاربٍ على غير هدًى بانتظار ظهور مرفأي الأخير.

أحيانًا يختفي هذا الشعور ليحتلني شعور أعمق وأثقل وطأة ووحشة.

إنه ببساطة: (الاحتياج).

الاحتياج لشيءٍ ما وشخصٍ ما، الاحتياج للدفء.. الاحتياج للحب الحق.

فنحن أحيانًا نحتاج إلى الدفء.. الكثير من الدفء، أحيانًا نحتاج فقط لمجرد الشعور بأننا محبوبون.

هذا الشعور كثيرًا ما يُأرجحني، يدوخني.. يستبد بي ويتركني حائرة بين رغبتين أولهما: البحث عن شيء، شخصٍ، حيوانٍ أليف كي أضمه لحياتي الفارغة الباردة الموحشة. أما الثانية: وكأنني أفتش عن شخصٍ ما بعينه أعرفه ولا أعرفه، أجهل ملامحه لكني أوقن أنني عندما أراه سأتعلق به.

في أحايين كثيرة عندما يحيط بي العديد من الأشخاص تجتاحني رغبة بالوحدة؛ أريد من الجميع فقط أن يذهبوا بعيدًا، أريدهم أن يتبخروا ويبق إلى جواري ذلك الشخص النفيس المجهول.. نصفي الآخر الذي أتوق له.

ذلك الشخص الذي يهديني ابتسامات لطيفة، ذلك الشخص الذي سيأتي لي بكوب قهوتي حين غرة وأنا متعبة، يجلس إلى جواري قليلًا، يلمس كتفيّ برقة سائلًا: كيف أنتِ اليوم؟

لأخبره: أنا بخير.

فيربت فوق كتفي برفقٍ قائلًا بهدوء: حسنًا سأتركك تحصلين على بعض الراحة ولكن اعلمي أنني إلى جوارك دائمًا.

هذا ما أبحث عنه؛ الاهتمام اللطيف، لا الحب الخانق، أو اللامبالاة العارمة.

لقد أردت دومًا حبًا لطيفًا.. أردت ذلك الحب الذي يعطي ويأخذ، ويُقَدِّر ويُقَدَّر، لكني لم أحصل عليه!

لقد حصلت على ذلك الحب المتملك الأعمى؛ ذلك الحب الذي يرسمُ لي صورةً بخياله، ثم يحاسبني لأنني لم أكن كما توقعني! ذلك الملك الأهوج الذي لم يحاول أبدًا التَنَزُّلَ من عليائه، لم يحاول أن يراني دون الثوب الحريريّ المرصع بالجواهر الذي ألبسنيه في خياله، لم يحاول قط أن يفهمني؛ فقط ظل يجلدني لاختلافي عن باقي جواريه.

كذلك حصلت على الحب الأناني؛ ذلك الحبيب الأرعن الذي كان يغار إذا نطق أحدهم باسمي لكنه لم يحتفي بما أقاسية عندما يُمازح أخريات!

ذلك الرجل الأحمق، كم ركعت ببابه أستجديه، كم تعبدت بمحرابه.. دعوت أن يتخلى عن جزءٍ من رعونته لكنه -أبدًا- لم يفعل!

حصلت أيضًا على ذلك الحبيب الذي يعتقدُ أن المشاعر تُشترى بالمال.

أنا لا أحب الرجل الذي يبتاع لي هدايا باهظة كي يعلقني به؛ الهدايا الباهظة رُبما تبهرني للحظات لكنها لا تُسعدني، والفرق شاسعٌ بين الكلمتين!

لذلك كل أرفض كل تلك الهدايا جميعها محاولةً الشرحَ له؛ فأنا ببساطة لا أحب تلك الهدايا الفاخرة لأنها تُشعرني وكأنني أبيعُ نفسي. أحاول إخباره بأن أحب الهدايا لقلبي كتابٍ أو زهرةٍ بيضاء.

كذلك أنا لا أحب المطاعم الغالية الباهظة.. أحب دائمًا قضاء وقت مواعدتي بالحدائق لأقوم بإعداد الطعام بنفسي.

أنا أحبُ الطبخَ كثيرًا.. أنا حقًا ماهرةٌ بالطبخِ؛ لأنني أجده طريقة مثاليَّة للتعبيرِ عن المشاعر.

بالنسبةِ لي لا شيء أروع من عشاء منزليّ على أضواء الشموع، أو نزهة قمريَّة صامتة وقد تشابكت الأرواح والأيادي.

هل أخبرتك قبلًا أنني أحب الشموع؟ لا؟

أنا أحب الشموع كثيرًا، كذلك الأكواب، أحب تجميعها ولا أدري لماذا.

لدي كوب أبيض مطبوع فوقه صورة لفتاة تقوم بتنظيف شيءٍ ما.. أعتقد أنها سندريلا.

منذ صغري وأنا أشعر بارتباطي بهذا الكوب بشدة ولا أدري لماذا لم أكف عن الحملقة به بطفولتي!

أردت دومًا سحب تلك الفتاة من فوق الكوب وأضعها بقلبي لشعوري الدائم بأنها تعاني وأنا غير قادرة على مساعدتها.

لدي أيضًا كوب أسود مطبوع فوقه علامة برجي إنه (الدلو).. أنا لا أحب القراءة عن الأبراج كثيرًا؛ تحليل الشخصيات وما إلى ذلك لا أومن به حقًا، ولكني أحب تلك الأساطير التي تتحدث عن الأبراج.. أحب الأساطير الإغريقية أيضًا كثيرًا.

هل تعلم أسطورة برج الدلو؟ لا؟

إنها تتحدث عن أميرة جميلة للغاية، تركت قصرها لتملأ دلوًا من أحد الآبار خارج أسوار قلعتها ورغم تحذير الجميع لها إلا أنها كانت تصرُ على الذهاب يوميًّا حتى رآها نبتون -إله البحار- وهي تملأ الدلو فوقع بحبها من النظرةِ الأولى لكنها رفضته؛ فظهر لها من جديد على شكل حصانٍ جميلٍ أبيض رائع وعندما اقتربت منه اختطفها فوق ظهره ليحظى بحبها عنوةً.

ولم يتم العثور على الأميرة.. كل ما عُثر عليه كان فقط (الدلو)، و(أثار حوافر الحصان)؛ فأصبحا رمزًا لبرجِ الدلو.

أعتقد أنك برج السرطان.. أنا لا أتذكر أسطورته حقًا، رُبما عليّ البحث عنها من جديد، كل ما أعرفه عن المولود السرطانيّ أنه يُدعى (طفلُ القمرِ).. فهل أنت كالقمر؟ متغيرٌ مثله ومتقلب الأطوار؟.. أنا أتساءل!

يُقال دائمًا أن علاقة الدلو بالسرطان علاقة كارثيَّة.. ولكن من يهتم!

أنا أهتم فقط بالأسطورة التي تجمعهما.

هل تعرفها؟

قيل قديمًا أن امرأة برج الدلو تقابلت مع رجل برج السرطان بلقاءٍ دبره القدر؛ لقد وقعا بالحب من النظرة الأولى وتبادلا العهود.

لكن الثقة بينهما لم تستمر؛ فكلاهما طبعه التردد والتذبذب بالحب، وقد انتهى الأمر بهروب المرأة الدلويَّة بعيدًا عن رجلها السرطانيّ.

بالبداية لم يعرف الرجل ماذا يفعل؛ لقد تردد كثيرًا، لكنه أوقن بالنهاية أنها قدره، وأنه لن يجد امرأة أكثر ملائمة له سواها، ورُغم جميع الاختلافات التي تعوق ذلك الحب أخذ يبحث عنها باستماتة حتى عثر عليها –يُقال أن السرطان يستطيع العثور على أي شيء يريده– وجددا وعودهما من جديد؛ فرُغم المظهر البارد للمرأة الدلو إلا أن رقة ومحبة رجل السرطان استطاعت إسقاط كل تلك الحواجز التي وضعتها حول نفسها؛ رُبما لأنه أخبرها أنه يعشقها حق العشق، وأنه سيظل دائمًا إلى جوارها يمسح دموعها.. يدعمها ويحميها.

لذلك عندما رأيتك فوق المسرح للمرةِ الأولى شعرت وكأنني ملكت الدنيا وما فيها، شعرت أن ذلك الصوت يحيط بي، يحميني ويدفئني ويعالج آلامي بلطف؛ لقد حصلت على حبٍ جديدٍ لم أراه قبلًا قط.. لقد حصلت على (الحب المُحال).

منذ ذلك اليوم اتضح الحب لي.. لم أعد تائهة بكينونته؛ فأنا أوقن أن الحب بحد ذاته ليس ما نقرأه بقصص الهوى، ليس ذلك الشيء الذي يتوَّج بزفافٍ أو بموتٍ؛ إن الحب ليس ذلك الشيء الذي هولته لنا الروايات برومانسيَّته المفرطة وكماله المرعب.

جعلتنا نعتقد أن الحصول عليه دربٌ من المستحيل في واقعنا الحالي. فالحب لا يحتاج أن يكون مثاليًّا إنه يحتاج فقط أن يكون حقيقيًّا.. الحب الحق يحتاج فقط إلى: (صدق، وثقة).

أحيانًا أتساءل: كيف لي أن أحبك بهذا اليأس؟!

أنا أعلم جيدًا أنك لن تقرأ ما أكتبه لك من كل قلبي، كما أنني يائسة تمامًا من رؤيتك مجددًا بسبب رجوعي لبلدي؛ لكنني أحبك كثيرًا، حتى وإن كنت بعيدًا للغاية.

أعلم جيدًا أنك بالسماء وأنا بأسفل السافلين؛ فنحن لا نتحدث نفس اللغة، لا نحمل نفس الجنسيَّة، ولا حتى نفس الديانة!

وإن قابلتك يومًا أعلم أنك ستبتسم لي تلك الابتسامة التي تأسر جميع (عزيزاتك) -كما تسميهن- ستحدثني بوقارك المعهود، ولباقتك، ودماثتك المعتادة.

ربما سأحصل منك على نظرة مغازلة وربما لا!.. فأنا لا أعلم شيئًا عن ذوقك بالنساء.

هل تفضلهن بيضاوات؟ خمريات؟ هل تفضلهن صهباوات؟ شقراوات؟

سمراوات؟!

عندما سألوك بأحد البرامج عن أكثر شيء يجذبك بشكل المرأة لقد أجبت بحيادية تامة: الأظافر الطويلة!

وعندما ألحت فتاة متسائلة إن كنت تفضل النساء القصيرات.

أجبتها ببساطة أن الطول، والشكل لا يشكل معك أي فارق، وأن أهم شيء لك مدى اتساع قلبها؛ وكأنك تعلم أن آلاف السمراوات سيمتن كمدًا إذا علمن أنك تفضل الشقراوات، وأن

الشقراوات سيصبغن شعرهن للأصهب إذا كنت تفضل فتاتك صهباء.

بكل يوم تبهرني لباقتك، ورقتك، ولطفك.. لا أدري كيف أقولها؛ ولكن لماذا ليس لدينا الكثير من (السيد جي) بعالمنا؟! لماذا لا يملك البعض لطفك!.. لماذا أشعر وكأنك ذلك الرجل الذي لا يتكرر بالعمر مرتين!

أنا حقًا ممتنة لوجودك بالحياة، أنا حقًا ممتنة للغاية للرب لأنه وهبك لي.

حتى لو لدي ملايين الأسباب التي قد تجعلني أتخلى عن ذلك الحب العجيب الذي أكنه لك، ولدي سببٌ واحدٌ للتمسكِ بك فأنا دائمًا سأتمسك بهذا السبب الذي يجعلني أقاتل من أجلك.

أنا ببساطة لا أستطيع التخلي عن هذا الحب، وكيف لي! وهو الشيء الوحيد الذي يجعلني أستمرُ بالحياة!

لقد أطلتُ كثيرًا بخطابي هذا، ولكن أنا أحب التحدث معك حقًا، أحدثك بكلمات لن تراها؛ وإن رأيتها لن يكن لديك وقت للرد عليها من الأساس. رُبما أفعل ما أفعله من قبيل إرضاء رغبتي بالحديث إليك؛ وكأنني إذا قابلتك يومًا سأقول لك: ألا تعرفني؟

وقتها ستنظر لي متعجبًا؛ من تلك المجهولة التي تحاول مضايقتك!

فأقول لك: أنا....!

أنا لم أخبرك اسمي بعد!.. سأفعل بخطابي القادم؛ لأنني أطلت حديثي كثيرًا اليوم.

ملحوظة:

لقد أرفقت صورة لي بخطابي هذا حتى تتعرف عليّ عندما نتقابل لمرتنا الأولى –إذا أراد الرب– وجهًا لوجه.. من يعلم! رُبما يحدث!

ملحوظة أخرى:

أميري (جي).. أنا حقًا هائمةٌ بك.

-٨-

سيدي (جي)،

طاب صباحك...

لقد مرت تسعة أيام منذ آخر خطاب أرسلته لك، ومازلت

-كما أنت- فاقد الإحساس بكلِ شيء وبالوقت.

اليوم هو عيد الحب، هل تحب عيد الحب؟

حقيقةً أنا لا أحبه، أجزع منه كما أجزع من الأعياد العاديَّة.

أنا حقًا أكره الزحام، والضوضاء، كما أكره الصوت المرتفع كثيرًا.

أحب الشوارع الفارغة، والجو البارد الذي يلسعني وأنا أحتسي كوب قهوتي الفرنسيَّة.. رُبما أحب كذلك الأماكن المظلمة.

ولولا أن عظامي بدأت تؤلمني في الآونة الأخيرة لظللت في الظلامِ للأبد.

لقد طلب مني الدكتور أن أتعرض للشمس يوميًا.

قال لي: من المؤسف أن تكوني بهذه السن الصغيرة، وتعانين من التهابات العظام.

ابتسمت وقتها، رُبما لأنني أشعر بمدى السنوات التي عشتها، الكثير من الأحداث مرت، الكثير من الأصدقاء أيضًا، والكثير من الرجال.

حتى عائلتي.. ليس هناك شيء ثابت في حياتي.. إنه فراغٌ قاسٍ للغاية.

أنا لم أكن يومًا فتاة سيئة، كنت أحاول جيدًا تحسين سلوكي كي أصبح امرأة صالحة.. كي أصبح زوجة، وحبيبة صالحة.

فعلت العديد من الأشياء لأجل الشخص المنتظر، ومازلت أفعل العديد من الأشياء لأجل نصفي الآخر الذي ضل طريقه إليّ.

دائمًا أومن أنه يجب عليّ أن أعمل بجد حتى استحقه، حتى يأتي لي.

أكون حبيبة جيدة وزوجة جيدة فقط كي أجعله سعيدًا، وقتها رُبما يثق بأنني سأكون أمًا صالحة.

أتعلم.. أنا أخاف الأمومة، أخاف الإنجاب بل وربما أرفضه بعنف.

جميع من في المنزل يظنون أنني أكره الأطفال، لكني لا أستطيع فقط التعامل معهم.

عندما تجدُ شيئًا أكثر هشاشة مما يجب، شيئًا صغيرًا لا تستطيع فقط حمله بالطريقة الصحيحة فيبدأ بالبكاء؛ وقتها أشعر أن شيئًا ما بداخلي ليس على ما يرام.. شيئًا بداخلي يتحطم كالزجاج وينغرس بكل خلية فيّ.

جميع فتيات العائلة يقلن لي أن الأطفال والحيوانات يشعرن بحنان الشخص؛ لذلك عندما يبكي الطفل فهو يبكي لأنه يشعر بقسوتي.

بعض صديقاتي ينعتنني بـــ: (مصاص دماء الأطفال)؛ رُبما أنا كذلك، فأنا صارمة للغاية مع الأطفال.

أكره تضيع الوقت وأريد للطفل أن يلعب بعدما ينجز ما طُلبَ منه، ولا أحب سليطي اللسان من الأطفال، قليلي التهذيب.. ذلك يجعلني أشعر بسوء تربيتهم.

لذلك أنا خائفة للغاية أن يكرهني أبنائي لصرامتي...

الأمر لي مرعبٍ بشكلٍ لا يُصدق؛ لذلك أنا بحاجة لرجلٍ قويٌ إلى جواري يشاطرني المسؤولية، يهدئ من روعي، ويساعدني بتربية أطفال أستطيع النوم كل يوم وأنا راضية تمام الرضاء، ومقتنعة تمامًا أنني لم أقصر بحقهم، وأن الربَ راضٍ عني.

لا أريد أن أكون ذلك النوع من الآباء الذين يشعرون برضاءٍ زائفٍ عن أنفسهم ويعذبون أطفالهم معهم، لا أريد فجوة بيني وبين أبنائي.

ولكنها الطبيعة البشريَّة.. أحيانًا يتسع رضانا عن أنفسنا ليدخل بنطاق التيه والصلف، يجعلنا نظن أننا ارتفعنا لمرتبة محاسبة الجميع؛ بل وعقابهم أيضًا!

بهذا الوقت ينمو داخلنا شعور ما بألوهيَّة زائفة نُقدس أنفسنا من خلالها، ولا نُدرك كم الحماقة التي أصبحنا عليها.

لهذا أنا بحاجة لرجلٍ قويٍّ إلى جواري؛ كي يعيدني إلى صوابي وأعيده إلى صوابه لو أصابنا (تيه التحكم).

أريد ذلك الرجل الذي يتقدمني لأنه يثق كل الثقة أنني سأحمي ظهره، لن أخونه ولن أطعنه، لا أريده يسير إلى جواري.. أريد أن أثق به، أن أجعله يتولى حمايتي، وأتولى حمايته كلٌّ منا بطريقته، كلٌّ منا بمكانه.

ذلك النوع من الثقة أنا أرغب به بشدة رُغم عدم عثوري عليه!

أتعلم.. لقد كدت أتزوج أحد المرات؛ ولكننا تركنا بعضنا البعض قبل الزفاف بأشهر.

لقد قال لي أنه لا يثق بي بشكلٍ كافٍ، ويريدني أن أعمل بجد كي أكتسب ثقته.

لقد رحلت ولم يمنعني، لم يتفهم ألمي.. لم يتفهم الأذى الذي سببته لي كلماته.

بالبداية وجدت الأمر مثيرًا للضحك لا للألم؛ فهذا الكلام يقوله رجل مازال في طور المواعدة، أو حتى في طور الإعجاب!

كيف له أن يحبني ولا يثق بي!.. لقد تركته قائلة أنني (لا أستطيع).

لقد اعتقد وقتها أنني لا أريد أن أفعلُ شيئًا من أجله.

ببساطة هو لم يفهمني؛ لم يفهم أن الثقة بالنسبةِ لي لا تُكتسب إنها شيءٌ يُمنح.

عندما أحبك فأنا أثق بك، أعطي لك قلبي وأتمنك على كل شيءٍ بحياتي.

إذا طلبت مني أن أستبدل طلاء أظافري الفضي بالأحمر؛ سأفعل دون مناقشة حتى لو كنت من عشاق الأحمر لأنني أحبك، وأثق بك.. أثق أنك ستختار دائمًا الأفضل لي. حتى لو امتنعت عن ذكر السبب وراء أي رغبة مجنونة تجتاحك سأفعلها لأنني ببساطة (أثق بك).

هذا هو الحب إنه لا شيء سوى (ثقة).. لم أتفهم بذلك الوقت كيف سيتزوجني وهو لا يثق بي!.. كيف سيثق أنني لن أخونه، ولن أخدعه!

لقد تخليت عن كل شيء لأجله؛ توقفت عن العزف، عن الرسم.. حتى رغبتي بالعمل تركتها، رغبتي باستكمال دراستي حذفتها.

حاولت فقط التركيز على فكرة إنشاء مترل، إنشاء أسرة معه تاركة أحلامي وقد كنت على خطأ كبير بذلك الوقت.

لكنني الآن عدت لأستكمل ما بدأته بالماضي، أتقدم بحياتي دون الالتفات للوراء. دون أدنى شعور بالألم أو الأسف؛ في يومٍ ما سأنشئ الأسرة التي أرغبها، وسأنجب الأطفال الذين أرجوهم.

لكن أتعلم كثيرًا ما أشعر وكأنني غير قادرة على الإنجاب، لكن سواء أنجبت أم لا؛ سأتبنى بعض الأطفال.. نعم أريد الكثير من الأطفال.. أريد رجلًا وأطفالًا وعائلة كبيرة؛ حتى لو لم أتمكن من إنجاب العديد من الأطفال سأقوم بالتبني.

وإذا لم أتمكن من فعل أي شيء مما أتمنى رُبما سأقتني حيوانًا أليفًا لمرتي الأولى.. حيوان سأشتريه (أنا).

لكني سأحتاج إلى رجلي المنشود كي نقوم بالاعتناء به سويًّا؛ فأنا أخشى —أيضًا— الاعتناء بالحيوانات رُغم أنني تعاملت كثيرًا معهم. لقد وجدت منهم تقبلًا لم يعطيني إياه أحد.

في زمنٍ بعيدٍ كان لدي سلحفاة أنا حقًا لا أذكرها جيدًا. عندما ماتت لم يخبرني أحد. أخذت أفتش عنها ولم أجدها.. لقد حزنت كثيرًا.

حتى وجدتها مَيْتَة في أحد أركان حديقة منزلي. كانوا جميعًا يعلمون لكن لم يعبأ أحد بإخباري!

لقد قمت بعدها بتربية أحد (الكتاكيت)، ولكنه مات أيضًا!

بعد ذلك بفترة طويلة أتت (بوكا) إنها قطتي الرمادية الصغيرة؛ أنا أحب القطط ولكني أفضل الكلاب.

كنت أرغب بكلبٍ صغيرٍ ككلب (أنستيشيا) لذلك أطلقت عليها اسم (بوكا).

لم تدم صداقتي معها، لقد أبعدتها أمي عن المنزل فهي لا تحب القطط، وتعتقد أنني سأمرض دائمًا.. بسببها فصحتي وقتها لم تكن على ما يرام؛ كنت صغيرة وضعيفة للغاية، وأعتقد أنني لم أتغير كثيرًا.

لقد زدت يقينًا وقتها أن كل شيء سيفارقني.. لذلك لم أقم بتربيةِ أي شيء بعدها.

حاولت التوجه لزراعة النباتات؛ فأنا أحب النباتات كثيرًا، ولكني فشلت في زراعتها أيضًا.

لذلك أنا خائفة للغاية، وعندما يسألني أحدهم عن نوع الأزهار التي أحبها أقل ببساطة: أحب زهور الحائط.

تلك التي لا تذبل، تظل باقية للأبد ولا تفارقني؛ رُبما هي عقدة الهجر!

أنا أخشى أن يهجرني صوتك فلا تغادر أرجوك؛ لقد وهبك الرب لي، أهداك لي كي تُخرجني من دوامة الموت لدوامة الحياة من جديد.

أنا أعلم أنك لن تخذلني.. لقد أرسلك الرب كي تكون جانبي للأبد؛ لهذا أنا لا أحتاج لأحد، أنت تكفيني.. فقط أنت تكفيني.

ملحوظة:

رُغم أنني سعيدة بالتحدث إليك للمرة الأولى

كما لم أحدثُ أحدًا في حياتي قبلًا إلا أنني أرجو أن تُشفى سريعًا

كي أتوقف عن الثرثرة.. وأصلي لأجلك في الظلام من جديد.

ملحوظة أخرى:

أفتقد ابتسامتك كثيرًا.. أرجوك فقط عُد...

-٩-

أميري الذي لم يستيقظ بعد (جي)،

كيف حالك اليوم؟

أرجو أن تكون بخيرٍ وبطريقك للشفاء...

اليوم أنا متفائلة للغاية؛ مبتهجة ولا أتوقف عن الضحك.

أريد أن أشكرك على زيارتك لي بحُلم اليوم.. حقًا لا أدري كيف أعبر لك عن مدى امتناني!

يا إلهي الرحيم، أنا بغاية السعادة!

لقد استيقظت منذ قليل، لم أفعل أيُّ شيءٍ سوى إرسال رسالة جديدة لك!

كنت دائمًا أردد أن السعادة ليست كثرة الضحك؛ السعادة هي أن تستيقظ مبتسمًا، مبتهجًا دون معرفة السبب!

لكن اليوم!.. يا الله لم أكن أكثر سعادة بحياتي كاليوم!

لقد بررت بوعدك لي!...

بالطبع كنت ستبر بوعدك لي!.. فأنت لم تُخلف وعودك قط.

هل تريد أن تعلم ما الذي رأيته، وجعلني سعيدة لتلك الدرجة؟

لقد كنت أجلس بأحد المطاعم.. كان غريبًا ومزدحمًا للغاية.

جلست بطاولة لشخصين وأمامي مباشرة باب المطعم على امتداد بصري.

وكأنني على موعدٍ ما، بانتظار شخصٍ ما.. عيناي لا أستطيع تحريكهما بعيدًا عن الباب.

رأيتك تدخل إلى المطعم مرتديًا أروع بزَّة سوداء رأيتها بحياتي كلها.

بينما شعرك يصل إلى مؤخرة عنقك، وقد صبغته بلونٍ أسود جاعلًا بعض خصلاته حمراء!.. كنت رائعًا، وسيمًا، مدمرًا كعادتك.

جلست أمامي معتذرًا لتأخرك مبتسمًا ابتسامة رائعة، ابتسامة ملكتها أنا وحدي!

سألتك: هل أستطيع لمس خصلاتك من جديد؟

فأذنت لي: المسيها ولكن برفق.

لقد مددت يدي نحوك مررت يدي بخصلاتك.. كانت ناعمة للغاية.. ناعمة ودافئة للغاية.

تسللت يدي ببطء خلف رقبتك تداعب خصلاتك ومؤخرة عنقك.

ابتسمت لي برقة، وتركتني قليلًا أعبث بخصلاتك، ثم جذبتني نحوك وضممتني إليك.

لقد شعرت بدفء ينبعث منك كلماتي تعجز عن وصفه، لقد ظللت بين ذراعيك للحظات بعدها تبخرت!

رُغم قصر تلك اللحظات لكني أريد أن أشكرك بشدة، أشكرك من أعماق قلبي، لقد أعدت لي الأمل من جديد.. أستطيع الآن الابتسام قليلًا.

ببعض الأحيان أخشى مجرد أن أحكي لصديقاتي أحلامي تلك.. أخشى أن يتملكهن الحسد فلا أراك من جديد.

كنت بالبداية أتحدث عنك كثيرًا حتى وجدت عدد معجباتك بازدياد فاغتظت للأمر كثيرًا.. ليس غيظًا رُبما هي غيرة جنونيَّة غير مبررة، وربما توقفت عن الحديث حولك قدر الإمكان لأنك أثمن وأغلى أشيائي.. الشخص الذي أحتفظ بكل ابتساماتي وضحكاتي لأجله.

الشخص الذي احتفظ له برقصتي الأولى.. أتعلم لم أراقص أحد قبلًا!..

عندما كنت صغيرة أردت الرقص فدهست قدم أخي الأكبر وهو يعلمني؛ فتركني دون تعليمي حتى الخطوات الأولية.. هل تجيد الرقص؟

يا له من سؤال أبله!.. أنت تجيد فعل كل شيء تقريبًا!

أتعدني بتعليمي الرقص؟ أتعدني برقصة واحدة إن التقينا؟.. أطلب الكثير أليس كذلك؟

حسنًا.. أتعدني بها بأحلامي؟.. سأنتظرك.. حتى وإن تأخرت سأنتظرك للأبد.. هذا وعد وأنا لا أخلف وعودي أبدًا.

أتعلم البارحة رأت إحدى صديقاتي صورة لك.. قالت لي: إنه وسيمٌ للغاية.

نظرت لصورتك بهدوء ثم أجبتها: رُبما!.. أنا حقًا لا أدري فالوسامة أمر نسبيّ.

الجميع يعتقد أن وسامتك هي السبب الحقيقيّ وراء هوسي بك، ولكنهم مخطئون؛ الوسامة تُفنى لكن الشخصية، المبادئ، القدرة على النفاذ للمشاعر تظل باقية.

بالنسبةِ لي السيد (جي) عطوف، رائع وحساس للغاية، مبتكر ولا يستسلم، يبذل كل ما بوسعه لإيصال رسالة محددة؛ لهذا أنا أراه أوسم رجل على وجه الأرض. إنه نموذج الرجل الذي أستطيع وهبه ثقتي كاملة.

لم أجد أحد يعمل بتلك الجديَّة والتفاني من قبل؛ فجميعنا لديه الكثير من الـ(ظروف) والكثير من الـ(حجج) الواهية التي نتخذها مبررًا لكسلنا.. لعجزنا وقلة حيلتنا. مبررات لأي شيء وكل شيء؛ إنه الشعور الذي ينمو داخلنا وكأن الكون كله يتآمر ضدنا؛ فإن كانت الشمس تشرق من جهة اليمين لماذا لا تُراعيني إذن وأنا عسراء!

هل أخبرتك من قبل أنني عسراء؟

لا؟.. حسنًا أنا مثلك عسراء.. أنا أحب كل طفل أعسر؛ رُبما لأنني أشعر بهم مختلفين ووحيدين للغاية.

معظم طفولتي قضيتها وحدي، أجلس بالمنزل وحدي مطفئة كل الأنوار.. أتخيل وأحدث نفسي، وعندما أشعر بالخوف كنت ألمس قلادة صغيرة محببة لقلبي.. إنها (فراشة زرقاء) مصنوعة من الذهب. أنا أكره الذهب كثيرًا، وأفضل الفضة لكني أحب تلك الفراشة بشدة رُبما لأنها زرقاء!

فراشتي تعتبر الشيء الوحيد المتبقي من طفولتي، أنا لا أحب تذكر طفولتي كثيرًا.. إنها أكثر أوقات حياتي بؤسًا.

لكن فراشتي الزرقاء علمتني الصبر؛ كلما مررت بوقتٍ صعب، أو فارقني أحد الأشخاص أضم قبضتي حولها وكأنها تمدني بالقوة.

لم يكن لدي الكثير من الزميلات بالمدرسة فالجميع رهبني وقتها بشكلٍ أو بآخر؛ فأنا بالنسبة لهن (عرافة شريرة)، كلما أمسكت يد أحدهن أخبرتها ببعض أسرارها؛ لذلك توقفت عن تلك العادة، لأن الجميع بدأ بتجنبي بعدها.

أتعلم أنني أجيد قراءة الكف؟.. كذلك أوراق التاروت، وفناجين القهوة.

دعني أخبرك بموقفٍ طريفٍ، عندما خرجت بموعدٍ لأول مرة مع شابٍ يعجبني كثيرًا.

جلسنا بأحد المقاهي، وعندما علم أنني أجيد قراءة الكف بسط راحته أمامي طالبًا مني القراءة.. ترددت بالبداية أنا لا أرى المستقبل؛ بالأحرى أرى الشخصيات.. أحللها عن طريق خطوط اليد.

قلت له ببساطة: أنت أناني، مغرور، متعجرف وأرعن.. كما أنك تميل للحماقة.

فكان هذا موعدنا الأول والأخير!

لقد تصرف برعونة أليس كذلك؟

إنه موعدي الأول، كما أنني لا أجيد التعامل مع الرجال.. لذلك قررت أن أخفي حقيقتي.

لقد علمني الجميع كيف أخفي حقيقتي؛ فمن سيرحب على أي حال بفتاة عندما تمس يد الشخص تلتقط بعض ذكرياته، أو تقرأ شخصيته عن طريق تحليل خطوط اليد!

كما أن أفكاري لم تكن تلاقي ذلك الاستحسان؛ بعض الرجال كانوا يجدونني شديدة الرومانسيَّة.. لكني لست كذلك على الإطلاق؛ ليس لأنها عيبًا، ولكن لأنني بالفعل أفتقر إليها!

لدي بعض الاعتقادات، والمذاهب التي يراها الرجال رومانسيَّة خياليَّة فيسخرون مني.

لذلك توقفت عن التحدث عن رجل أحلامي، وكيف أنني أحب النوم وحدي بالفراش تاركة له مكانًا بجواري، وكيف أنني أغار إذا حاول أحدهم النوم إلى جواري متخذًا مكانه.

أتعلم لقد أهدتني إحدى صديقاتي صورة لك بمناسبة عيد ميلادي.. الآن أنا أضعها لجواري عندما أنام.. أبتسم لك ابتسامة كبيرة راجية لك أحلامًا سعيدة كل مساء.

وبكل صباح تكون أول شيء أراه عندما افتح عيني.. أشكر الرب لإعطائي يومًا آخرًا بالحياة كي أرى فيه ابتسامتك، وأستمع لصوتك، وأبتهل لأجلك.. لوجودك جواري.. أنظر إليك وأعدك أن أبذل جهدي وألا أضيع وقتي وأن أعمل بجد وأبتسم كثيرًا.

اللعنة أنا ثرثارة للغاية! لكني مبتهجة لأقصى الحدود لأنه بإمكاني الحديث معك دون إخفاء أي شيء.. التصريح بمخاوفي.. إظهار عجزي وقلقي.. مشاركتك بعض ذكرياتي الثمينة التي لم يعلم بها أحدٌ قط.

أتعلم.. لقد تمنيت دومًا الذهاب برحلة بعد زواجي إلى اليونان، أردت دائمًا الوقوف بجوار زوجي أمام تمثال أفروديت، ونتبادل عهود زواجنا من جديد والقبلات.

أردت أيضًا الذهاب مع الشخص الذي أحب إلى إيطاليا؛ البندقية على وجه التحديد. أعتقد أنك ذهبت إلى هُناك بأحد المرات، هل رأيت (جسر التنهدات[1]) ؟

هل تعلم قصته؟

---

[1] *بونتي دي سوسبيري*، ***Ponte dei Sospiri*** بالإيطالية. هو واحد من أشهر جسور البندقية، يقع على مسافة قريبة من ميدان بلازا دي سان ماركوس. ويصل بين قصر البندقية وسجن سابق لمحاكم التفتيش، عابرًا نهر ريو دي بلازو.

يُقال أن السجناء كانوا يعبرون يوميًّا فوقه مثقلين بالأصفاد لذلك سُمي (جسر التنهدات).. لقد تحدث عنه اللورد (بيرون) كثيرًا في شعره.

تقول الأسطورة: لو عبر حبيبان تحته بقاربٍ سيظلان متحابان للأبد.

لهذا أردت دائمًا الذهاب مع نصفي الآخر.. هل تعدني بمشاركتي تلك اللحظات لو سنحت الفرصة؟

لا تستطيع؟ يبدو أنني شردت بخيالاتي بعيدًا هل لك أن تعذرني؟

لا تلومني أرجوك؛ فأنا أشعر وكأنك ذلك الصديق والحبيب القديم الذي فقدته بأحد القرون التي عشتها قبلًا.

أنا فقط مبتهجة لوجودك الآن، يذيبني فرحٌ نفيسٌ لن يتكرر من جديد.

أتمنى حقًّا أن نتقابل في عصرٍ ما، أو في الحياة الأخرى الخالدة.. أريد أن أتعلم منك العديد من الأشياء.

أريدك أن تعلمني عزف البيانو؛ لقد توقفت عن عزفه منذ المرحلة الثانويَّة.

أريدك أن تعلمني ركوب الخيل، والدراجات؛ أنا لم أتعلمهم قط.. أنا أخشى السيارات والدراجات، لدي العديد من الذكريات السيئة مع كلٍّ منهما.

لم أقترب من حصان قط.. فقط أكتفي بالمشاهدة؛ لكنني أحبهم كثيرًا.

سأتركك الآن.. لقد ثرثرت كثيرا اليوم -دون فائدة كعادتي- أنا حقًا آسفة للغاية.

أرجو أن تعود لوعيك سريعًا وتتحسن، أنت ستتحسن أنا أثق بك.. لدي يقين بك، وسأظل أصلي وأبتهل لأجل عودة نفيسي (جي) من جديد.

ملحوظة:

رغم أنك تكره الجشع لكن دعنا نتلاقى بحلمٍ جديد.. حلم واحد فقط أخير أرجوك.

ملحوظة أخرى:

لقد طال الانتظار وأنا لست صبور لتلك الدرجة؛ لكني أومن أنني سأرى تلك الابتسامة الرائعة من جديد.. لن أمَل.. سأظل بانتظارك مهما تأخرت.

-١٠-

عزيزي السيد (جي)،

مرة أخرى لا أدري كيف أبدأُ خطابي.. أصبحتُ أوقن أنك لن تُشفى قط، وأنك ستظل معلقًا بتلك الأجهزة اللعينةِ للأبد.

كنتُ أحاولُ مشاهدة أحد الأفلام التي قمت بكتابتها، ولكني عجزتُ عن الاستمتاع بها وأنا أذكرك.

من الرائع أن تكون كاتبًا، ومؤلفًا للموسيقا، مغنيًا، وممثلًا، من الرائع أن تكون العديد من الأشياء التي لا أستطيع الوصول إليها.

كل مرة أشعر أنك لست مجرد نجمي المفضل؛ بل أنت سمائي.. أنت عالمي، أنت كل شيء لي بالحياة؛ لهذا أنا دونك أجد العالم فارغًا، وعديم المذاق.

لقد بدأتُ أكرهُ كل شيء.. أنا لم أعد قادرة على حب أي شيءٍ سواك!

أنا عاشقةٌ لكل شيءٍ بك: طموحك الذي لا يتوقف، قدرتك على التطوير من ذاتك، ثقافتك، وقوتك.. مهارتك في جميع الألعاب والرياضة.

أنا حقًا مجنونة بك.. جميع الرجال الذين قابلتهم في حياتي بطريقةٍ أو بأخرى يفتقرون للطموح، وإن تواجد الطموح تختفي القدرة على بذل الجهد والمثابرة!

لهذا أنا أعشق عملك بجد رُغم أنه يقلقني.. كيف لك أن تنام لثلاثِ ساعاتٍ باليومِ الواحد!.. كيف تتناول وجبة واحدة فقط باليوم!

وكيف تقوم بكل تلك الحفلات في هذا الوقت القصير!.. تُغني حتى تفقد صوتك، ثم تُغني من جديد لتفقد صوتك!

أشعر أحيانًا أنك طفل كبير يفتقر أحيانًا للتأديب، ولو كنت لك أمًّا رُبما ضربتك عدة مرات فوق رأسك كي تفكرُ بعقلانيَّة.

ولكن كيف ألومك وأنا لدي طموح كبير للغاية!.. نعم أنا أريد أن أكون مؤلفة موسيقا عظيمة؛ بل والأعظم على وجه الإطلاق.

الجميع يثني عليّ.. يقولون أن أمامي مستقبل باهر؛ ولكنني على عجلةٍ من أمري لأنني دائمًا ما أشعر -بشكلٍ أو بآخر- أن حياتي ستكون قصيرة للغاية؛ لذلك يجب عليّ أن أعيشها دون ندم أو تردد.

كذلك أوقن أن الحبَ نادرٌ، وربما لن أستطيع إيجاده يومًا؛ ولكن إن صادفته سأعرفه، سأطارده وأنتزعه.

أحلامي كبيرة، وطموحي أكبر، وثقتي بأنني سأحصل على ما أريد بالمثابرةِ أكبر وأكبر، وعندما يهددني الخوف من قصر العمر، ضخامة الأحلام، ندرة الحب؛ أعلم أنني على الطريق الصحيح لتعلم المواجهة؛

فلقد قرأت يومًا أن اللحظات التي تعلمنا الشجاعة هي اللحظات التي نجدُ فيها أنه لا خيار لنا سواها.

أتعلم عندما أنقذتني في الماضي من وحدتي ورغبتي بالتلاشي شعرت بالامتنان لأجل كل شيءٍ فعلته لي، ولكن لم تكن تلك المرة الوحيدة التي أنقذتني بها.

طوال الوقت الماضي ظللت تنقذني، تلهمني.. تدفعني للأمام في كل نواحي حياتي.

كلما شعرت أنني وحدي أجد صوتك إلى جانبي، ابتسامتك ومقولاتك الرائعة المشجعة ترفعني لعِنان السماء؛ رُبما أستطيع القول أنني منذ ذلك الوقت أصبحت أكثر تقديرًا لكل النعم التي منحها الرب لي.

بت أكثر تدينًا، أكثر حبًا للرب، أكثر قدرة على الحسم لكنني مازلت صعبة الإرضاء كما يقول أصدقائي.

لقد سألتني صديقة يومًا عن أكثر أيام حياتي إرضاءً؛ بطبيعتي لا أشعر أنني صعبة الإرضاء لهذا الحد، ولكن عندما نظرت لكل أيام حياتي الماضية لم أجد شيئًا بالفعل قادرًا على إرضائي.

هل لأنني بحاجة ملحة لذلك النصف الذي يكملني؟ ذلك النصف الذي طالما تقت له؟

وجدتني أخبرها ببساطة أنه ذلك اليوم الذي سأستيقظ فيه لأجده إلى جواري أبتسم في وجهه، وأطلب منه تحضير قدر كبير من الطعام لأنني أشعر بالجوع. وأنهره عندما تبرد قهوتي قبل أن يأتيني بالطعام.

ذلك اليوم الذي سنتنزه فيه معًا ونحن نرتدي أقنعة مبهرجة، ونلبس ذلك القفاز المزدوج وتتشابك أيدينا داخله، سنشتري قهوة إيطالية ذات رغوة كبيرة وسأصنع لنفسي شاربًا ضخمًا ثم أقبله أمام الجميع لينتهي بنا الأمر في مكان ما نشعل الحطب ونشوي شيئًا ما، ثم ننام أرضًا نراقبُ القمرَ متعانقين.

لقد أخبرتك أنني أحب القمر كثيرًا، كذلك السماء المرصعة بالنجوم.

أحب رائحة الجو بعد المطر.. أحب رائحة صابون الاستحمام أيضًا ورائحة منزلي المستقبليّ.

فكل تلك الروائح التي أحبها والتي انتظرها تُشعرني بالنظافة والدفء...

أريد لمنزلي أن يكون دافئًا رُغم أن جميع من حولي يرددون أمامي أنني شخصٌ متنقلٌ لا يستطيع الاستقرار.

هم فقط لا يفهمون أنني أتوق للاستقرار؛ ولكني لم أعثر عليه حتى الآن.

ماذا عنك؟

لماذا ظللت طوال السنوات الماضية دون زواج؟ لماذا لم تُنجب؟

العديد من الإشاعات التي لا أصدقها تدور حولك...

لكن بحق الله كيف يكون رجل بشهرتك، ووسامتك وكل شيء بلا زواج حتى الأربعينات؟!

أعلم أنك تصادق ولكنك لم تستقر أبدًا.

لطالما شعرت أن وجود أي امرأة إلى جانبك شاق للغاية؛ رُبما لن تستطيع المرأة وهي معك أن تكتفي بأن تكون تابعًا، ورُبما لا تريدها مجرد تابع.

عندما أفكر بتلك الأمور أعود لأخرجها من رأسي؛ فأنا لا أريد أن أجد إجابة وهميَّة أنا أعلم جيدًا أنها لن تكون سوى محض تخيلات.

لقد رأيت لك صورة جديدة اليوم لم أرها من قبل.. كنت تقضم أحد التفاحات الحمراء.

أعتقد أنني أخبرتك من قبل عن بعض الأشياء التي أمقتها: السيارات، الدرجات، كما أنني أرهب النحل جدًا.. أخاف منه خوفًا شديدًا.

لكن ما لم أخبرك به قبلًا خوفي من التفاح.. على وجه الخصوص: الأصفر والأحمر منه.

إذا تم إجباري أحد المرات على أكله أشعر بمرارة غريبة ثم أنزوي بأحد الأركان كي لا يراني أحد وأنا أبكي!.. أكره طعمه وأمقت رائحته.

أتعلم لو كانت للوحدة رائحة ستكون (رائحة التفاح).

ربما لأنني مكثت طويلًا وأنا طفلة وحدي بالمنزل.. الأمر لم يختلف كثيرًا عن الآن.. أنا وحدي أيضًا.

ولكن دائمًا ما يكون المنزل معبئًا برائحة التفاح الأحمر والأصفر.. والداي بالعمل وأنا وحدي مع رائحة التفاح....

يا الله أنا أمقت تلك الرائحة كثيرًا.. إن التفاح مؤلمٌ للغاية.

لقد فكرت بكل هذا عندما رأيت صورة لك تحمل بها تفاحة حمراء لا أدري لماذا انتابتني رغبة عارمة بالبكاء!

رُبما لأنني تذكرت وحدتي، حتى أنت تمكث الآن بذلك المستشفى، ورُبما أفقدك بلحظة ما من اللحظات!

ورُبما لأنني شعرت بأعماق قلبي أنني قد أفقدك أنت أيضًا، وأظل وحدي من جديد!

إن قلبي يؤلمني للغاية.. هل تشعر بي الآن؟ إنه مؤلم للغاية.. مؤلم وموحش للغاية.

سيدي (جي)، أتوسل إليك كن بخيرٍ لأجلي.. عد إلى وعيك فقط.. لا أريد شيئًا أكثر من ذلك!

عد لوعيك وسأكف عن إزعاجك للأبد؛ لن أحاول الإرسال لك من جديد، لن أحاول التواصل معك بأي شكلٍ من الأشكال.

لن أزعجك مجددًا.. فقط عد لوعيك سريعًا كي أحررك من أي وعد وهمي أعطيتني إياه بأحلامي المريضة.

بمناسبة المرض؛ أنا مريضةٌ للغاية اليوم؛ أشعر وكأنني محمومة قليلًا.. أدعو الله ألا ترتفع حرارتي وألا أرقد بالسرير لوقتٍ طويل.

لا أجد مغزى لكلامي الآن؛ فقط أردت أن أبعث لك، وأكتبُ أي شيء، وأتحدث عن أي شيء كي أكون إلى جانبك اليوم أيضًا.

ربما عليّ أن أكف عن الحديث الممل، وأذهب للفراشِ قليلًا.

سأحاول أن أنتظر قليلًا، وألا أراسلك علك تُشفى لكنني سأظل أبتهل لأجلك.

لقد ابتهلت كثيرًا اليوم؛ يُقال أننا نكون أقرب للرب في المرض قبل الصحة.

لهذا سأبتهل طوال الوقتِ لأجلك.. فتماسك أرجوك.

بالخطاب القادم سأحدثك أكثر عن نفسي وأسرتي، سأحدثك عن دراستي للموسيقا، وكيف بدأت أحب الرسم والشعر.

سأحدثك عن الكثير من الأشياء التي فعلتها لأجلي دون أن تعلم؛ فربما نتقابل يومًا ما وقتها عندما تراني ستعرفني من صوري السابقة وتقل لي: مرحبًا يا...!

أنا لم أخبرك اسمي بعد!

حسنًا لقد أطلت كثيرًا، سأحدثك عن اسمي في الخطاب القادم، وأشرحُ لك معناه، والظروف التي دفعتهم لاختياره؛ هناك مواقف طريفة للغاية ستجعلك تموت ضحكًا!

آسفة.. أنا بالطبع لا أريدك أن تموت، أريدُ أن يكون سبب توقفي عن الإرسال لك استمرارك بالحياة ولا شيء سواها!

أنا فقط أحبك كثيرًا.. أحبك، وأحترمك كثيرًا.

ملحوظة:

لدي يقين.. لدي كل اليقين بأنني سأرى ابتسامتك مجددًا مهما طال الوقت.

ملحوظة أخرى:

أرجوك عُد؛ فأنا أشتاقُ إليكَ كثيرًا.

أليس: لا أستطيع العثور على طريقي.
القط الشيشاري: هذا أمرٌ طبيعيٌّ، لأنكِ لا تملكين طريقًا من الأساس!

أليس ببلاد العجائب

كارل لويس

روليت الانتظار

وعود الإله مثل النجوم كلما كان الظلام دامسًا كلما لمعت أكثر...

- ٥ -

-أعطني من الفيش الأحمر.

-بأي شيءٍ تراهنين اليوم؟

ابتسم قائلة: بيوم ميلادي الخامس عشر.

ينظر لي نظرة خاوية كنظرات جميع سكان الوادي؛ فأبتسم ابتسامة خاوية بدوري، وأنا أنفث دخان سيجارتي، أناوله الورقة الخاصة بيوم ميلادي فيناولني الفيشات الحمراء.

لا أذكر متى أتيتُ إلى هذا المكان؛ فذاكرتي بدأ يأكلها الضعف منذ خطوت أولى خطواتي هُنا.

أنا أذكر القليل من كل شيء.. أحيانًا أحاول تذكر سبب وجودي فيتوه مني كل شيء.. تنطفئ الذاكرة فجأة ثم يعود كل شيء يلمع من جديد.. يلمع ويلمع.

لقد نصحتني (ريــــمـــــا) بالتدوين؛ كي لا أنسى، هي تدون كما يفعل الجميع.. الجميع هنا يدون كي يسترجعون ما ينسون.

بدأت بالتدوين، دونت كل ما أذكره وما أخشى نسيانه.. حتى الأشياء التافهة السخيفة دونتها، وما أن أفقدها أعود لأقرئها بمذكراتي ولكني كلما قرأتها كلما شعرت وكأنها غريبة تمام الغرابة عني، وكأنني لم أعشها قط.. لم أمر بها قط!

اليوم فقط تذكرت سر معرفتي بهذا المكان وأنا أراجع ما دونته.. لم أكتشف أي شيء بخصوص هذا الوادي إلا عن طريق صديقة قديمة لي اختفت مدة سنة بعد انفصالها عن زوجها.

في البداية ذهبت لمصحة نفسية، ظللت أتردد عليها من وقتٍ لآخر، ولكني بالنهاية مللت الأمر.. أنا أكره حقًا ذلك النوع من البشر الذين يضعون عقولهم فوق حافة قلوبهم؛ مع ذهاب أول حبيب يُدَمَّر كل شيء!

لقد سخطت عليها كثيرًا، ثم بدأت أشعر بالاشمئزاز مما حدث؛ رُبما لأنني كنت مثلها، ورُبما لأنني -مازلت- مثلها!

أنا من ذلك النوع الذي وضع عقله دائمًا على حافة قلبه.. لقد حاولت الانتحار مرتين أو ثلاثة! لا أذكر حقًا الآن.

لقد اختفت صديقتي بعد فترة ثم ظهرت فجأة من العدم مع زوجها من جديد. بدا مثلها تمامًا مدلهًا في حبها لدرجة البلاهة؛ بينما ظلت تبتسم هي وكأنها ملكت أحد كنوز الفراعنة!

عندما سألتها عن السبب قالت لي: إنه روليت الانتظار.

نظرت لها بغباء قائلة: وما روليت الانتظار؟

أجابتني: إنه مكان خاص.. تذهبين هناك بحقيبة العمر، تقامرين فيه بذكرياتك السعيدة فقط إذا ربحتِ تتحقق لكِ أمنية، وإذا خسرتِ

تظلين هناك لا أحد يعلم عنكِ شيء.. تنسين كل ذكرى سعيدة مرت بك، ولا تتذكرين سوى التعاسة ويبقى هذا حالك حتى يريحك الموت!

نظرت لابتسامتها الواسعة السادية البشعة. سرت بجسدي قشعريرة وأنا استمع لكلماتها المخبولة.. من المؤكد أنها لم تُشفَ بعد لكن زوجها عاد!

لم أصدق بالبداية هذا الهراء؛ لكنني ذهبت إلى هناك!

لقد رأيت نفسي دائمًا داخل عينيها.. كانت تُدعى (مها).. كنت أحب اسمها كثيرًا رُبما لأن هذا اسمي الخفي، أو الاسم الذي كانوا يدعوني به بطفولتي.. (مها).

لا أدري متى قررت هذا القرار؛ رُبما عندما اكتشفت هذا الورم الذي لا شفاء منه. هل كانت حياتي سعيدة لهذه الدرجة كي يأتيني هذا الورم ليزيد أيامي اخضرارًا؟!.. لم أتعب نفسي لأتعرف السبب؛ فقط قررت أن آتي رُغم حماقة الأمر.

مررت عبر بوابة وادي الانتظار، وتسلمت حقيبة الماضي السعيد، ودخلت بها إلى نادي الانتظار، وبدأت أقامر ببعض أيامي.

لقد تساءلت حقًا حول عدد الذكريات السعيدة التي حظيت بها طوال حياتي الماضية، لم أدرك أنني أملك ذكريات سعيدة بالفعل! ..بالطبع حظيت ببعضها!.. كيف لامرأة في أوائل العقد الثالث الادعاء بانعدام ذكرياتها السعيدة!

لم أكن أعلم أنه عندما نعبر بوابة وادي الانتظار فإنه لا رجوع في قرارك؛ ليس أمامي سوى الربح كي أخرج من هذا الوادي.. وادي الانتظار.

(الليلُ أناشيد والعمر مواعيد

يا قلبُ تعالى نغني فالفجر غدًا عيد

اللحنُ بنا طار في عالمِ أنوار

والحلوةُ رُغم شرودها تحملها الأوتار

عن حمانا نحن الطيور

عن رُبَانا حبٌ ونور

يا ليلُ إذا قيل الحب أظاليل

فأجب الحبُ دروب والعمر مواويل)

-١-

من كان يصدق أنني تلك الفتاة الصغيرة التي تسعد بمجرد كوب من المثلجات، أو ببعض قطع الشيكولاتة؟!

من الذي يستطيع أن يجزم بأننا لا نتغير؛ تلك الرغبات التي تملؤنا ونحن صغار.. سرعان ما تتبخر عندما نخطو أولى خطواتنا لنواجه واقعنا الجديد.

فكوب الآيس كريم لا يكفي لِيُنسيني أن جارتي في أوائل العشرينات تزوجت، وأنا في الثلاثينات ومازلت كما أنا (وحدي)!

حتى الدبلة لثلاث مرات متوالية رفضت البقاء بإصبعي أكثر من بضعة أشهر!

هل هو الحقد؟!

ربما.. رُبما أنا بحاجة للتوقف عن التدخين.. رُبما بحاجة لإنقاص وزني بعض الكيلوجرامات.. رُبما يجدر بي تعلم لغة جديدة.

طوال تلك السنوات التعيسة، ولم أتعلم سوى الإنجليزية فقط، وليتني أجدتها!

تقول لي أمي بنبرة مريرة: بعدما شاب... و تصمت جاعلة ضحكتها تكمل جملتها.

أمرر يدي بالشعر الأحمر الكثيف.. بالطبع هذا ليس شعري بل هو مستعار.. ككل شيء فيّ مستعار.. ما الذي دفع بي لخوض هذه المغامرة اللعينة؟!

حُب الحياة؟! ولماذا أحبها؟! أكانت يومًا رائعة؟! لا.. لم تكن يومًا رائعة.

الخوف من الموت؟! أيضًا لا.. فلقد تمنيته كثيرًا؛ بل وحاولت الانتحار من قبل، المرة الأولى في مرحلة الثانوية يوم تزوجت قُربى صديقاتي بابن خالتي، بعد فسخ خطبتي، بعد موت رامي!

لا ليس الموت؛ رُبما هو الأمل الأحمق.. ذلك الأمر الذي يقنعني بأن هناك غدٍ مشرق.. غد دون سجائر، دون ورم، دون أي شيء.

(أنا وسهرانة وحدي بالبيت

على السكيت ومتل الضجرانة

مشية قريبة طقت عالدرب

قلت يا قلب جايي حبيبي

قمت وضويت زحت البرداية

تيشوفا الجايي وشعشعت البيت

رتبت المزهرية وهييت قلوب السكر

حطيت الشال عليّ ولبست العقد الأحمر

ونطرت الباب تالباب يدق

والقلب يدق، وما دق الباب

والمشية بعدت بعدت بالليل

ومحاها الليل بعدت وبعدت

أنا سهرانة وطفيت الضو

وطلع الضو وأنا وسهرانة)

-٢-

(-أنا أحيا!

أكرر: أنا أحيا...

أصرخ: أنا أحيا.. أنا أتنفس.. أنا مازلت أملك ذكريات سعيدة.

لكن لماذا يأبى صوتي الخروج؟!)

أستيقظ من ذلك الكابوس المروع.. منذ اليوم الأول في هذا الوادي وأنا لا أشعر بالراحة مطلقًا.. نفس الكابوس يتكرر.. الشعور بأن كل شيء سعيد يرحل عني.

أهمس: خائفة.

أمسح العرق عن جبيني.. أمرر يدي فوق رقبتي.. ألمس بعض خصلات شعري القصير المتفرقة، لقد بدأ يسقط، و بعد وقت قصير سأصبح فارغة الرأس.

ابتسم وأنا آخذ خصلة منه ألويها ناظرة إليها مراقبة لمعانه الغريب.

أخرج من درج الكمود علبة سجائري، أُشعل واحدة وأنا بالسرير.

أنفث دخانها و أنا أرفعها بموازاة وجهي مراقبة النار تأكلها.

نفسٌ آخر و سأطفئها...

-ستكونين الأخيرة.

أردد لها، أضحك من غبائي لقد بت أتحدث للسجائر الآن!

بالبداية الصور، والحقائب والكتب والآن السيجارة!

أهمس مرة أخرى وأنا أراقبها: رُبما عليّ أن أنهيك فأنتِ الأخيرة.

نفسٌ آخر.. أتبعه بآخر.. ثم أطفئها.

انهض من فراشي بهدوء أتوجه صوب النافذة أفتحها لأشاهد القمر المكتمل، أبتسم وأرسل قبلة له قائلة: أنا في قمة التفاؤل.. سأصبح صلعاء قريبًا.

أدير الراديو فهو الموعد المعتاد لأغاني فيروز.. يطل صوتها الجميل:

(خليلي عينك عَ الدار..

عَ سياج اللي كله زرار

بكرة الشَتوية بتروح

وما نتلاقى بنوَّار

يحلى عيد ويضوي عيد

ونزرع ونلم عناقيد)

أبدأ أتمايل مع الأغنية حتى تفذ قوتي، أرتمي فوق السرير ألهث.. أمد يدي لدرج الكمود.. لعلبة السجائر ملتقطة واحدة لأشعلها، أرفعها أمام وجهي لأراقب النار تأكلها، أهمس: ستكون الأخيرة.

(وانطرني ولا تبقى تفل

وتتركني وحدي عم طل

وجمعتلّك حرز زهور

ياسمين ومنتور وفل

زِهرة بايد وقلب بايد

يا خوفي لاقيك بعيد)

-٣-

هل كان الناس بوادي الانتظار ودودين؟

رُبما.. أنا حقًا لم أكن من محبي الاختلاط.. كنت استيقظ متأخرة.. أراقب الغروب من نافذة حجرتي متلذذة بأنفاس سيجارتي وصوت فيروز، وعندما تدق الساعة الثانية عشر بعد منتصف الليل ارتدي ثوبي الأزرق، أذهب إلى كازينو الانتظار لأقامر في الروليت من جديد.

حتى تدق الساعة الثانية بعد منتصف الليل، البعض يُصاب بالإحباط، يبدأ يسرف في شرب الخمر.. البعض تنفذ ذكرياته السعيدة، أراقب صراخهم الهستيري.. الدموع المنهمرة.

إن أبشع المشاهد رأيتها منذ أتيت للوادي مشاهد (نفاذ الذكريات السعيدة).

أول مشهد رأيته عندما أتيت لوادي الانتظار كان لشابة بأوائل العشرينات تصرخ بشدة، حطمت الواجهة الزجاجية للكازينو.. ثم أخذت قطع من الزجاج، وبدأت بغرسها في وجهها ورقبتها. راقبت المشهد مفزوعة.. لم أستطع فعل شيء.. والمشكلة أن العاملين تركوها! تركوها تنزف حتى الموت!

لقد أرقني المشهد لأيامٍ عديدة، ولكن كل يوم كنت أرى ما هو أبشع لذلك تعودت، رُبما أصبحت بلا إحساس!.. نعم.. هذا هو التعبير الصحيح لقد أصبحت (فاقدة الإحساس).

الحياة في الوادي مثالية جدًا لفتاة مثلي قليلة الاختلاط.. لا أذكر سوى بعض الجمل القليلة التي تبادلتها مع العاملين بالوادي، وتلك الفتاة (ريـــمــــا) التي نصحتني بالتدوين.. إنها حقًا غريبة، ودودة مع الجميع بشكلٍ يثير الريبة لا الراحة والاطمئنان.

معظم الوقت كنت أكتفي بدخان سيجارتي، بفنجان القهوة السوداء الثقيلة، وصوت فيروز الحزين، حتى قابلته.

هو أيضًا كان ودودًا بشكلٍ يثير الشكَ، والغيظَ معًا!

متألق دائمًا بصورة مبالغة، يضحك بمبالغة.. كل شيء يفعله كان يقطع أعصابي تقطيعًا ويكاد يشج رأسي من ارتفاع ضغط الدماء!

هل الناس هنا بتلك اللامبالاة حقًا!

هم يتخلون عن ذكرياهم السعيدة.. سيموتون من الحسرة والألم قريبًا.. اللعنة لماذا يجب على شخص أن يكون ودودًا في هذا الوقت العسير!

(حبيبي ندهلي قلبي الشتي راح

رجعت اليمامة زهر التفاح

وأنا على بابي الندى والصباح

وبعيونك ربيعي ونور وحلي

وندهلي حبيبي جيت بلا سؤال

من نومي سرقني من راحة البال

أنا على دربه ودربه عالجمال

يا شمس المحبة حكايتنا أغزلي)

-٤-

اسمه تميم –أو هكذا قال– كان من القلة القليلة التي عرفتها بالوادي.. لماذا هو؟!

لا أدري.. رُبما لأنه الوحيد الذي رأيته يُلقي ذكرياته، يُراهن بها بلامبالاة كادت تفلقني غيظًا!

جاء بعدي بفترة قليلة، وقفت من بعيد أراقب الروليت يدور.. وسمعته يُلقي بأولى ذكرياته.

لقد اختار أغلى فيش في الوادي، فالفيش في الوادي ينقسم أنواع، أغلاهم الأحمر، يليه الأزرق، ثم الأبيض.

بالطبع يختلف كليًّا عن الروليت الحقيقي الذي نقامر فيه بأموالنا فقط.

عندما اختار الفيش الأحمر، علمت وقتها بأنه قرر أن يتخلص من أولى ذكرياته الغالية؛ بل أغلى ذكرى لديه على الإطلاق.

قال ساخرًا: سأقامر بـــ (ليلة رأس السنة ٢٠٠٨). رُبما سخريته الشديدة هي ما جعلني أوقن أنه يُخفي شيئًا ما.

راهن على رقم ثمانية، وخسر رهانه.. وخسر الكثيرون.

في روليت الانتظار لا أحد يربح.. لا أحد يربح إلا نادرًا.. ومن يدخلون هذا الوادي لابد أن يمتلكوا شيئين لا ثالثَ لهما: أولهما التهور، والآخر الجنون.

لا أدري إلى متى وقفت أراقبه، ولكني راقبته كثيرًا، كان يثير فضولي وغيظي.

أريد أن أعلم كل شيء عنه، لماذا يبدو سعيدًا هكذا! ما المبهج بهذا الوادي اللعين؟!

لكنني عدت لحجرتي بعدما انتهيت من المقامرة، لم أجرؤ على الكلام معه.

جلستُ -كما اعتدت دومًا- أستمع من جديد إلى صوت فيروز يتهادى إليّ:

(جابتلي العصفورة علبة فيها لعب

يوقعوا بجورة بنت وصبي دهب

وأسأل أنا قلبي كيف الدني بزورا

تبكي وعَ العلبة تُغمز العصفورة)

-٥-

يُدعى تميم، و أُدعى سارة.. من كان يعتقد أننا سنلتقي يومًا؟!

هذا الشخص يثير غيظي بجنونه؛ فهو يمرح مع فتيات الفيش هُنا، كما أنه يمرح مع فتيات مقهى الانتظار، وعاملات النظافة!.. يمرح مع كل شيء ينتهي بـــ (تاء التأنيث)!

كان وادي الانتظار حقًا نعيمًا لمن أراد أن يستمتع؛ هم لا يُدخلون أحدًا إلا إثر مبلغ ضخم من المال. إذا لم تفز فهم يعلمون جيدًا أنه يكفي ما تبقى من إقامتك حتى تنتحر بشكل لائق.

أين يقع الوادي؟.. حقيقةً أنا لا أعرف!.. ولا أعرف كيف وصلت له.. من أين أتيت بالمال؟!

من أين؟!

بالطبع سرقته...

أو لم أسرقه؛ فهو ملك أمي على كل حال، وملكي بعد عمرٍ طويل.

بالطبع لو باعت أرض جدي منذ مدة طويلة؛ لما مات رامي، لما ظللنا في ذلك الفقر المُدقِع.

ماذا ستفعل الآن؟.. لقد بعت الأرض بهذا التوكيل اللعين الذي أقنعتها بعمله لي، لقد وضعت لها بعض النقود بالبنك تُكفيها حتى

يأتيها الخبر، وتَمُت إثر نوبة قلبية.. تَمُت كما أماتت رامي.. كما أماتتني.

(تعا ولا تيجي

و أكذُب عليّ

الكذب مش خطيَّة

وعدني أنه راح تيجي

و تعا.. ولا تيجي)

كنت معتادة على سماع أغاني فيروز وقت الغروب، وأنا أحتسي قهوتي السوداء الثقيلة.

غرفتي غرفة مثالية، تطل على وادٍ به بعض التلال الخضراء، كان المنظر رائعًا للغاية، يجعلني أشعر أنني بلبنان، هناك شيء ما مألوف بالوادي؛ كأنها وطنٌ ثانٍ لي.

أجلس كل يوم بجوار النافذة، أفكرُ في إذا ما كنت اتخذت قرار صائب بالمجيء هُنا، وقتها سمعتُ نقرات خفيفة فوق حافة نافذة حجرتي، ألتفت لأجده أمامي.

حقيقةً لقد ارتبكت.. ولا أدري لماذا أصابني الارتباك.. فتحت النافذة قائلة: أي خدمة؟

ابتسم قائلًا: أحببت التأكد فقط أنكِ كما يقولون.

رفعت حاجبي متسائلة؛ فهناك لكنة ما تشوب لهجته العربية هو ليس مصري بالتأكيد، أجابني دون أن أقوم بطرح سؤالي: يقولون أنكِ متقوقعة.

-أنتَ...!

قاطعني وكأنه يُجيد قراءة الأفكار: فَلسطينيّ.

ابتسمت رُغمًا عني أمام هذه الابتسامة الرائعة.

تميم أبيض اللون، ذا عين ضيقة قليلًا تبدو كأنها مرسومة، أهداب كثيفة، شعر أسود، لم يكن ذا وسامة مفرطة؛ بل ما يميزه فعلًا كونه خفيف الظل.

أسرني عندما تحدثنا لأول مرة نطقه لكلمة فَلسطينيّ -لم يكن مثلنا نحن المصريين ننطقها بكسر الفاء- شعرتُ بها مليئة بالفخر.

سألته: و ما الذي أتى بك إلى هُنا يا سيادة الفَلسطيني؟

ضحك ولم يجبني، ثم تركني وذهب!

(تعا ولا تيجي

و أكذُب عليّ

الكذب مش خطيَّة

وعدني أنه راح تيجي

و تعا.. ولا تيجي)

اسمه تميم، أو هكذا أخبروني.

أخبروني أنه هنا من أجل الكثير، يقولون أنه حالم، وحلمه غير قابل للتحقيق. يقولون أن (زيوس) الوادي غاضبٌ عليه؛ لذلك سيحرمه من تحقيق أمانيه.. لكنه لا ييأس ومازال مبتسم.

ومازلت أستمع إلى فيروز، أفكر في رامي، تسيل دموعي عندما أتذكر ركضه نحوي مُبتسمًا تلك الابتسامة، بشعره الأشقر وأسنانه المتآكلة من الحلوى، أجهش بالبكاء، وأنا ممسكة بصورته، أمر يدي فوقها وأهمس: سامحني يا صغيري.

أتذكر عندما رجع من المدرسة يبكي؛ فأستاذته سخرت منه عندما قال لها أنه يريد أن يصبح سفيرًا، سخرت منه لأنها بمنتهى البساطة لا تُجيد شيء سوى أن تكون حقيرة مع التلاميذ.

أذكر تلك الصفعة التي هوت بها فوق وجه رامي عندما كان يناولها ورقة إجابة الامتحان لأنه لم ينظر إليها، عاد يبكي ويسألني ما جريمته؟! ما الذي جناه كي يتلقى تلك الصفعة! وقتها كنت أضعف من أن أقومَ بشيءٍ لأجله.

أهمس: ليتني يا صغيري أستطيع طلب حياة أخرى لك، حياة جديدة سعيد لك؛ لكن الموتى لا يعودون، لا يعودون.

أحاول كتم دموعي، لكنها لا تتوقف.. يستمر صوت فيروز الذي لم أعلم حتى الآن هل يُجلب الأمل أم يأخذه.

(ايدش كان في ناس..

ع المفرق تنطر ناس..

وتشتي الدنيا..

ويحملوا شمسيَّة..

وأنا بأيام الصحو..

ما حدا نطرني)

مازال الرأس الأشقر والعين الخضراء الحُلوة تُطاردني..ذلك المشهد بالمستشفى.. أحاول كبحه، لا أريد تذكره.ولكن صوت فيروز لا يسهل الأمور، ومن جديد يأتيني صوته الطفولي الخافت عندما سألني عن معنى : (صار لي شي مية سنة مشلوحة هما الدكان).

أوعده بالإجابة عندما يُنهي واجب الرياضيات.. فيُنهيه بأقل من ربع ساعة.

يأتي ليحتضنني من ظهري وأنا أنشر الغسيل بسطح المترل ليخبرني أنه أنهاه.

تسيل دموعي من جديد متذكرة غناءنا لفيروز...

يهمس لي بوسط الأغنية متسائلًا إذا كان بإمكانه أن يدعوني (ماما)، أضمه بقوة ثم أقبله فوق وجنته، و أخبره أن لديه بالفعل (ماما).. يهمس لي: أنا لا أحبها مُطلقًا.

أحاول كبح ضحكتي متظاهرة بالتقطيب، ثم أجد دموعي على وشك الانهمار، أضمه من جديد هامسة: تستطيع.. يا حبيبي.. تستطيع.

(ايدش كان في ناس..

ع المفرق تنطر ناس..

وتشتي الدنيا..

ويحملوا شمسيَّة..

وأنا بأيام الصحو..

ما حدا نطرني)

-٧-

(أعطني الناي وغني..

فالغناء سر الوجود..

وأنين الناي يبقى..

بعد أن يفنى الوجود..)

ابتسمت وأنا أمشط شعري الخفيف المبتل، ويتعالى صوتي مع فيروز.

(هل اتخذت الغاب مثلي منزلًا دون القصور

فتتبعت السواقي

وتسلقت الصخور

هل تحممت بعطر؟

وتنشفت بنورٍ؟

وشربت الفجر خمرًا في كؤوسٍ من أثير..)

أتذكر ذلك الوقت.. عندما وقفت أردد هذه الأغنية فوق مسرح الجامعة، بينما وقف بعض شباب الجامعة يحملون لي الزهور.. ينتظرونني كي أنتهي من غنائي.. أتذكر تلك العين السوداء المتسعة،

و ذلك الوجه الأسمر الذي حَدَّق بي.. ممسكًا بباقة كبيرة من الزهور البيضاء، أرسل له بعض النظرات في الخفاء، أجده من وقتٍ لآخر يرمق حاملي الورود بغضب مبالغ به، أفرح بتلك الغيرة الزائفة.

عندما تقابلنا بفرقة الكلية تبادلنا الكراهية من النظرةِ الأولى، وعندما غنينا معًا على مسرح الجامعة وقعنا بالحب!

ابتسم بسخرية، ثم أقرر الخروج من الغرفة دون الشعر المستعار، أتوجه نحو مكان الروليت المعتاد، أسير وسط حديقة كثيرة الأشجار شبه مظلمة، يتسلل إليّ شعور بأن هناك من يراقبني.. أردد بصوتٍ عالٍ غير عابئة بشيء كالأيام الخوالي:

(أعطني الناي وغني وانس داءً و دواء

إنما الناس سطورٌ كتبت لكن بماء..)

أسمع تصفيق خفيف ساخر يأتي من مكانٍ ما.. أهمس بضيق: يا للقرف.. أحد اللزجين المتطفلين مرة أخرى.

ألتفت فتكون (ريـــــمـــــا).

تقترب مني قائلة بابتسامتها المبتهجة المريبة: صوتك جميل جدًا.. صوتك جميل، لماذا لم تحترفي الغناء؟

ابتسم بسخرية قائلة: ماذا تظنين بالله عليكِ؟!.. بوطني لا أحد يحترف الغناء من الفتيات دون أن يخلعن ثيابهن وربما خلعن شرفهن أيضًا!

-والأوبرا؟!

-الطريق عبر الأوبرا أو (الفن النظيف) طويل للغاية، ولم يحقق أحد منه شهرة معقولة حتى!

تسألني وعيناها تكاد تنفذ داخلي: أحقًا هذا؟.. لا تبدين من ذلك النوع الذي تقهره الطرق الطويلة، أو مجرد باحثة عن الشهرة.

سألتها هازئة: ماذا أبدو لكِ إذن؟!

قالت بجدية شديدة: تبدين فنانة حقيقية.. أراهنُ أن عدم غنائك وراءه رجل.

شعرت بوخز خنجريٍّ بأعماقي؛ لكني ابتسمت ببرود ثم أتركها وأذهب محاولة السيطرة على ملامح وجهي كي تبدو عادية لأقصى درجة، وخُيل لي أنني نجحت في هذا!

(أعطني الناي وغني
وأنسى داءً ودواء
إنما الناس سطورٌ
كُتبت لكن بماء)

-٨-

-هل بإمكاني الانضمام إليكِ؟

وقف من جديد أمام نافذة حجرتي، وابتسامته التي لا تفارقه مطبوعة فوق شفتيه.

تساءلت: هل هناك شيء بالعالم قادر على إزالتها؟!

ابتسمت له بدوري دون إرادتي: هل تريد القليل من القهوة؟

-لا.. أريد فقط أن استمع معكِ لفيروز.

-حسنًا.

ظل واقفًا أمام النافذة ما يقارب نصف ساعة!.. يحملق بي.. لا أدري لماذا ظل يحملق بي كل هذا الوقت؛ لكني تجاهلته مغمضة عيني مستمتعة بغناء فيروز.

سألني: لماذا أتيتِ للوادي؟

أجبته ببرود: فراغ.

-أستطيع أن أرى.

فتحت عيناي ثم سألته: ترى ماذا؟

-لا شيء.. أنتِ فقط سليطة اللسان.

-وأنت حيوان.

-أنتِ أول امرأة تنعتني بهذا الكلام!

-أصدمتك؟!

-النساء القبيحات لا يصدمنني.

-أتعلم.. لست حيوانًا فقط؛ بل و(ابن كلب) أيضًا.

-أبي لم يكن كلبًا.

-كان داعرًا إذن؟!

-كان قوادًا إذا صح التعبير.. أما أمي..!.. لا أدري ما الوصف المناسب لها...!

-لا تصفها بوصف سيء.

-لماذا تهتمين! لقد سببتِ أبي منذ قليل!

-نعم.. لكني متعصبة للنساء!.. هي لم تحملك تسعة أشهر، لم تهبك الحياة، لم تتحمل قرف الهرمونات كي يأتي حيوانًا مثلك يتسبب بإهانتها.

طوال جدلنا لم تغادره الابتسامة.. سألته بتردد: أكان والدك قوادًا بالفعل؟

ضحك ولم يجبني.. فأعدت السؤال؛ لكنه لم يجب فقط اكتفى بسؤالي مجددًا: لماذا أتيتِ إلى هُنا؟

أجبته بهدوء: ورم.

-لا علاج له؟

-بلى.. هناك علاج؛ ولكني على سبيل الفراغ، وتضييع الوقت، والمال، والجهد جئت كي أقامر هُنا!

لم أستطع منع نفسي من السخرية.. يا لسذاجة سؤاله!

اتسعت ابتسامته قائلًا: أنتِ تعجبينني.

فغرت فاهي أمام وقاحته المتناهية، ثم قلت: وأنت لا تعجبني!

قال بثقة كادت تفلقني: آه.. أعلم.. لكنكِ ستعجبين بي.

ابتسمت نصف ابتسامة ساخرة، وحاولت الحفاظ على هدوء أعصابي.. لا يجب أن أسبه من جديد.

سألته متجاهله ما قاله: لماذا أتيت للوادي؟

للمرة الأولى أشعر وكأن ابتسامته ترتجف، وهو يجيبني وكأنه يقاوم كي يحافظ عليها حتى وسط حديثه: هُناك شيء ما أريد الحصول عليه، أريد وهبه حياتي.

-تهبه حياتك!.. لكن وادي الانتظار لا...

قاطعني: فرصتي هُنا لا بالخارج، الجميع بالخارج يحاولون لكن آجلًا أم عاجلًا سيفشلون.

-ولماذا لم تحاول بالخارج؟.. إن كان هناك طريق خارج الوادي لماذا لم تسلكه؟

-لقد سلكه الكثيرون قبلي.. أنا أتعلم من أخطاء الآخرين يا سارة.. أنا لست أحمقًا.

-كيف عرفت اسمي؟

مال فوق النافذة مقربًا وجهه لوجهي؛ فاندفعت للخلف وجلة..

قال وقد اتسعت ابتسامته: ألم أقل لكِ أنكِ تعجبيني!

-وقلت أنني قبيحة منذ قليل!

قال وهو يبتعد: نعم.. أنتِ قبيحة وأنا معجبٌ بكِ.. ذوقي بالنساء سقيم.. أليس كذلك!

شعرت برغبة بالغة بقذفه بكوب القهوة؛ لكنني اكتفيت بالسكوت مستمعة لأنغام فيروز، وأنا أراقب خطواته الواثقة.. ولا أدري لماذا تمادى لعقلي كلمات إبراهيم ناجي.. فوجدتني أردد: واثقُ الخطوةِ يمشي ملكًا ظالمُ الحُسنِ شهيُّ الكبرياء.

(يا مرسال المراسيل عالضيعة القريبة

خدلي بدربك هالمنديل وأعطيه لحبيبي

عالداير طرزته شوي إيدي والأسوارة

حيكتله اسمه عليه بخيطان السنارة

بخيطان الزرق والحمر وغناني الصبيان السمر

كتبتله قصة عمر بدموعي الكتيبة

خدلي بدربك هالمنديل وأعطيه لحبيبي)

(موعود بعيونك أنا
موعود وشو قطعت كرمالن ضيع وجرود
فأنتِ عيونك سود وما انك عارفة
شو بيعملوا فيا العيون السود)

-كل الأمور خير إذا انتهت على خير.

أقف من جديد أمام المرآة وتتسع ابتسامتي مرددة: هيا أبكِ.. لم تبكِ اليوم؟ تُرى لماذا يا سارة! هيا أبكِ.. تذكري أي شيء سيء وأبكِ!

أخرج لساني أمام المرآة.. أراقب وزني لقد بدأ بالانخفاض مؤخرًا يا للروعة!

تقع عيني على صورة رامي فوق طاولة الزينة فأشعر بانقباض.

ابتسم برفق قائلة وأنا ألمس البرواز: ما أن أنهي أمر هذا الورم سأذهب لقبرك ومعي علبة كبيرة جدًا من الشيكولاتة.. فقط انتظرني فأنا سآتي.. حتمًا سآتي يا صغيري..

تشويش.. أشعر بالتشويش.. متى رأيته يبتسم للمرة الأخيرة؟.. أنا لا أذكر!.. حتى الآن لم أقامر بذكرياتي مع رامي فهي الشيء الوحيد الذي يدفعني للحياة.

رامي.. حبيبي رامي.. صغيري وحبيبي رامي.

(عهدير البسطة

اللي كانت ناقلتنا

من ضيعة حملايا

على ضيعة تنُّورين

تذكرتك يا عليا وتذكرت عيونك

يخرب بيت عيونك يا عليا شو حلوين)

أترك المرآة لأغلق الراديو.. رُغم حبي لأغاني فيروز إلا أن هذه الأغنية أكرهها بشدة؛ لارتباطها به ربما.. نعم.. لارتباطها به.

ماذا كان اسمه؟.. محمود؟.. على الأرجح كان هو.. نعم.. هو.. محمود!

بابتسامته الناصعة، ووجهه الأسمر الأسواني الجميل.

-أحبك يا سارة، أتقبلينني زوجًا لكِ؟

-أقبل.

فستان زفاف، وطلاق بعد شهرين!.. يا لها من قصة حب رائعة!

أحاول مسح تلك الذكريات عن رأسي.. اللعنة لماذا لا أستطيع فقط نسيان كل شيء! لماذا يجب أن يختفي كل شيء رائع ويبقى الألم!

يبقى الألم!.. من جديد تدق رأسي بالصداع.. ابتسم خارجة من غرفتي.

تعمدت صفق الباب بشدة خلفي، وكأنني انتقم منه.. ولم ينقصني أبدًا.. لم ينقصني رؤيته أمامي بتلك اللحظة.

ابتسامته، ابتسامته اللطيفة.. اللعنة أنا في مزاج سيء لا يسمح لي بالانفعال مع تلك الابتسامة اللطيفة الطفولية!

-مساء الخير.

رددها بابتهاج مستفز...

(مساء الزفت) هذا ما جال برأسي لكنني لم أستطع النطق به!

ابتسمت ابتسامة باهتة مفتعلة دون إجابة ثم تركته وذهبت...

سألني وهو يسير متتبعًا خطواتي السريعة: أصائمةٌ أنتِ عن الكلام؟

-لا.. أنا فقط لا أريد التحدث إليك.

-ولماذا تتحدثين إليّ إذن الآن؟!

التفتت إليه وكدت أصفعه لولا أنه أمسك يدي قائلًا: أتعلمين.. تأخر الحيض، الذكريات المؤلمة.. الوحدة.. وكل تلك الأشياء المثيرة للأسف والشفقة ليس حلها الصفع!

حاولت تحريك يدي لكن قبضته أُحكمت حول معصمي بشدة.. حاولت ألا أبكي.. لكني كنت بحاجة للبكاء.

تنهدت بعمق قائلة: اتركني.

ابتسم متسائلًا: أتريدين الهروب لأحد الأركان كي تبكي؟

صحت به وأنا أدفعه بيدي الأخرى: بحق الله اتركني.

-أي إله؟

نظرت له بتعجب قائلة: ألا تعترف بوجود الله؟

-تقصدين الخالق؟.. بلى.. لكني لا أعبده.

شحب وجهي، وأنا استمع لكلماته الغريبة، ثم سألته: إذن أنت مُلحد؟

-لا.. لست ملحدًا.. أنا كافر، هناك فرق شاسع بين الاثنين!

-أنت الأسوأ.

-لماذا أتيتِ إلى هنا طالما تؤمنين بإلهك إذن؟!

-أتيت كي أغير مستقبلي.. وأنت كذلك.

كانت ابتسامته كما هي.. ثابتة بشكل يثير للغيظ: أنا لست مثلك يا سارة، لم آتِ إلى هنا من أجل نفسي.. نحن مختلفان تمام الاختلاف.

-نعم نحن مختلفان تمام الاختلاف؛ لكني على الأقل دعوت الله وهو حتمًا سيستجب؛ علي فقط الانتظار.

-أهذا ما تؤمنين به؟

-أنا فقط أومن أن وعود الإله مثل النجوم؛ كلما كان الظلام دامسًا كلما لمعت أكثر.

كرر سؤاله بكلمات جامدة لا تحمل أي مشاعر: أهذا ما تؤمنين به؟

أجبته ببساطة: أنا فقط أومن بالأشياء التي أستطيع الاحتفاظ بها، أما الأشياء التي أشك بفقدانها لا يجدي التمسك بها.. الكفر بها قد يكون نعمة ببعض الأحيان.

همس تاركًا يدي: الكفر نعمة دائمًا يا سارة.. قد تظنين أن الملائكة مخلوقات لطيفة.. إنها جيدة فقط في هراء اختلاق الأعذار.. مشكلتك يا عزيزتي أنكِ حتى الآن لا تُدركين أن الآلهة أيضًا بارعة بالكذب!

صحت به: أنا لست عزيزتك!.. إليك عني.

قال برتابة والابتسامة لا تفارقه: ماذا يعني كلامك إذن؟!.. أنتِ فقط تؤمنين بروليت الانتظار.. ذلك الروليت الذي تقيد مصيرك به؛ لو آمنتِ حق الإيمان لما أتيتِ إلى هُنا طالبة الشفاء من آلهة الوادي.. كنتِ فقط طلبته من إلهك خارج الوادي.

لم أتحمل كلماته فصحت به من جديد: الدعاء وحده لا يجدي.

اتسعت ابتسامته قائلًا: إذن الله وحده لا يجدي؟

دفعته بعيدًا عني متمتمة، وقد بلغ انفعالي أوجه: لا تتفوه بذلك الكلام الأحمق.

-تقصدين ألا أتفوه بما يُعكر صفو الإله؟!

هذه المرة لم أستطع منع نفسي من صفعه بقوة.. وقف ثابتًا أمامي، ولم يتفوه بشيء وكأن ما فعلته كان محض تخيلاتي؛ حتى أنني تساءلت تُرى أصفعته حقًا أم أنني أتخيل؟!

-الإله لا يحتاج إليك كي تُعكر صفوه.. نحن معًا بنفس القارب قد تتعرض للغرق مثلي تمامًا.

تمتم ناظرًا لي نظرات متأملة عميقة: لكنني أجيد السباحة يا سارة.. أنا لن أموت.. أنا لم أُخلق لأموت! ولم آتِ لهذا الوادي كي أحافظ على حياتي مثلك.. نحن مختلفان اختلافًا كُليًّا.

انسحب تاركًا إياي خلفه لكنه قبل أن يتوارى عن نظري قال بهدوء: مشكلتنا نحن العرب إدماننا للأوهام.. ووادي الانتظار وهمٌ آخر نُدمنه...!

(نحنا كنا طالعين
طالعين ومش دافعين
ساعة نهديلوا البال
ساعة نهدي الركاب
هيدا اللي هو ومرته
عباء وداخت مرته
وحياتك كان بيتركها
تطلع وحدها عالتنورين
لو بيشوفوا عيونك يا عليا
شو حلوين)

(أهواك بلا أمل وعيونك تبسم لي
وورودك تغريني بشهيات القبل
أهواك ولي قلب بغرامك يلتهب
تدنيه فيقترب، تقصيه فيغترب
في الظلمة يكتئب ويهدهده التعب
فيذوب وينسكب كالدمع في المقل)

-صوت فيروز سحبني إليكِ.. لقد عثرت عليكِ أخيرًا فلا تذهبي.

صداع شديد، ألم شديد.. بينما صوت ضعيف يخترقني، يخترق ظلام أعماقي كأشعة الشمس مبددًا كل خوفي.

افتح عيناي ببطء لأجده لجواري، يمسك أصابعي برقة لم أعهدها بالرجال.. يرفع أصابعي لشفتيه، لا يقبلها بل يمسها مسًّا خفيفًا؛ وكأنه يخشى جرحها.

يا لرقته!.. ابتسم بهدوء مراقبة شعره المتناثر حول وجهه والهالات السوداء المحيطة بعينيه.

أنا لا أذكر كل شيء حدث البارحة؛ لكنني قررت المقامرة بكل ذكرياتي مع محمود.. وقد خسرت كل ذكرياتنا السعيدة، رُبما لم

أتحمل الألم، لكنني أذكر وجهه عندما انهرت أبكي كما لم أبكِ من قبل.. الوحيد الذي تحرك نحوي، احتضنني دفؤه رُغم نعتي له بالإلحاد وصفعي له، شعرت وكأنه يريدني أن أفرغ غلّي به.

وقد فعلت.. ضربته وجرحت وجهه ورقبته، لم أعهد نفسي بتلك الوحشة من قبل.

حتى أنني قبلته، قبلته وأفرغت حقدي كله فوق شفتيه حتى أدميتهما.

لا أدري متى فقدت الوعي ولكنني عدت له الآن، وها هو مازال إلى جانبي.. يبتسم بلطف.. يبتسم.

شعرت برغبة ملحة بالاعتراف له بحبي.. أردت قول: أحبك.

حتى وإن لم أكن أعنيها.. أريد فقط قول أحبك.. أريد قولها لشخصٍ ما.

طوال السنوات الماضية منعت نفسي من قولها؛ لكن الآن رغبت فقط بقولها له.

أنا أحبك أيها الكافر الحقير الطفولي الحيوان ابن القوّاد؛ أنا أحبك لأنني أريد قول تلك الجملة اللعينة لأحد!

اتسعت ابتسامته عندما وجدني أحملق به، ويبدو أن مشاعري ظهرت فوق وجهي فهو جيد بقراءة مشاعري كما لم يفعل قبله أحد!

-تحبين ما أفعله أليس كذلك؟

سحبت يدي مرتبكة، ثم أدرت وجهي بعيدًا قائلة: شكرًا.. بإمكانك المغادرة الآن.

لم أستوعب حتى الآن وجوده لجواري بغرفتي، فوق فراشي.. وإلى جانبي لهذه الدرجة!

سألني وهو يقف مشيرًا لصورة رامي: من هذا؟

-ابن أخي.

-ألديكِ أخ؟!

-تصور!

لم أستطع منع نفسي كالعادة من السخرية منه.

ضحك، إنها المرة الأولى التي أسمعه يضحك بها.. أردته أن يضحك مجددًا.

لقد ابتسمت بدوري قائلة: لقد مات منذ زمن طويل.

-وزوجته؟

سألني بعفوية أقرب للملل؛ فأجبته محتفظة برتابة نبراتي الأقرب للملل: مرة قحبة.

التفت لي مذهولًا.. هذه المرة الأولى التي أرى ذلك التعبير فوق وجهه! لقد اعتقدت أنه قادر على الابتسام للأبد فقط!

ضحك من جديد.. ضحكة ساحرة جانبية بإمكانها وضع آلاف القلوب بين راحته كي يتلاعب بهم كما يشاء!

-أنتِ سليطة اللسان للغاية!.. لم أتوقع هذا!

لم أجبه بل نظرت له بابتسامة هادئة مراقبة ملامحه الذاهلة الضاحكة بنفس الوقت.

-وأين الطفل الآن؟

جمدت تعابير وجهي، وارتجف صوتي عندما أجبته: مات كوالده.

لم يظهر على وجهه أي تأثر وهو يعاود السؤال: كيف مات؟

-حمى شوكيَّة.

-آهااا.

-نعم...

-لا شيء يبقى.

-الألم فقط يبقى.

اقترب مني ثم نظر لي بتفحص قائلًا: أتعلمين.. أكره -من أكثر ما أكره- أولائك الذين يربطون أنفسهم بالألم الأبدي.

-حقًا؟!

سألته ساخرة.. ثم تابعت: أنت غير عادل يا تميم.

-نعم غير عادل، كما أنكِ غير عادلة.. لا أحد يستطيع احتواء صفة كالعدل.. جيد بتِ تناديني الآن باسمي.. قريبًا ستجعلينها عزيزي.

صحت به: أنت لست عزيزي!

عاد لابتسامته المستفزة التي لا تُطاق، ثم قال وهو يغادر: سأكون.. لا تقلقي.. سأكون.

(في السهر أنتظر ويطول بي السهر

فيسألني القمر يا حلوة ما الخبر

فأجيبه والقلب قد تيمه الحب

يا بدر أنا السبب أحببت بلا أمل)

-١١-

-من تكون؟

-من؟

-تلك الفتاة الجديدة.. ما اسمها؟

-ماريا.. يُقال أنها سوريَّة.

-آها.. هذا يفسر جمالها!

ترمقني ريما بنظرات غاضبة قائلة: أتفوقني جمالًا؟

أمسك أحد مجلات الأزياء أتصفحها بملل قائلة: اذهبي وسلي أي رجل؛ فآرائهم أفضل من آراء المرأة بتلك الأمور.

سحبت المجلة من بين أصابعي قائلة: لكني احتاج إلى رأي امرأة.

نظرت لها نظرة مقيمة.. الفتاة ليست قبيحة على العكس؛ شعرها أسود قصير، ناعم وكثيف يُحيط بوجهها، رشيقة القوام متوسطة الطول. ملامح وجهها أقرب لعرائس الباربي.. عيناها زرقاء واسعة إنها بالفعل جميلة لكن ماريا أجمل.

مارية شقراء.. يبدو شعرها مصبوغًا لكنه متوسط الطول أجعد.. رُبما هي بالأصل صهباء لا أدري.

كشفت ملابسها عن نمش كثيف فوق الكتفين وأسفل العنق يغطي الصدر بالكامل.. أنا أكره النمش كثيرًا تزعجني رؤيته، (قبلات الملائكة) من تكون؟!

هناك فتاة ما.. ليست داليا، رُبما رحاب!.. على الأرجح تلك التي خانني معها؟!

لم تكن الأولى، تلك المزعجة ذات النمش.. كان النمش يغطي وجهها لكن ماريا تلك لا يغطي النمش وجهها بصورة كبيرة رُبما أخفته بمستحضرات التجميل!

ملامح وجهها منفرة.. جميلة لكنها منفرة!.. عينها ضيقة فيروزية وفمها رفيع وأنف حاد.. أنف حاد مزعج. إنها جميلة لكن جمالها مزعج!

قلت لها بهدوء: ملامحها مزعجة.. أنتِ أجمل بكثير.

قالت بفرح: حقًا!

أجبت بملل وأنا آخذ المجلة منها: نعم.. جمالها شاحب، تذكرني بتماثيل الشمع، لا أدري لكني كرهتها.

وقفت ريما، ثُم انحنت تحتضنني بقوة قائلة: أنتِ رائعة يا سارة.

تضايقت منها، فأنا أحب الحفاظ على مسافة كبيرة بيني وبين الأشخاص.

نظرت لها بتعجب فقالت بابتسامة رائعة: أنتِ فقط صادقة، لا تنافقين.. أنتِ حقًا عادلة.

رددت متذكرة كلام تميم: عادلة!

-نعم عادلة.. أراكِ لاحقًا.

الجلوس بمقهى الانتظار مملّ للغاية، لولا دعوة ريما لما خرجت من غرفتي.. أنا بالعادة لا استيقظ بهذا الوقت. يا للملل!.. لكن على الأقل قهوتهم ليست سيئة للغاية!

وتلك الفتاة الغريبة ماريا لا تجلس بمكانٍ واحدٍ.. حسنًا إنه اليوم الأول لها هذا جيد يومين بالضبط وستبدأ حالة الملل والتقوقع.

مقهى الانتظار رائع حقًا، طاولات متفرقة وسط خضرة وأشعة شمس جميلة، نافورة بيضاء تضخ المياه بشكل فنيّ رائع، بينما في المساء يُضاء المقهى بمصابيح زيتية!.. جو شاعري للغاية! لو قرروا جعل وادي الانتظار مزارًا سياحيًّا، أو مكانًا لقضاء شهر العسل سيكسبون ذهبًا!

تميم يتقدم نحو المقهى، يبدو رائعًا ببزّته البيضاء تلك؛ وكأنه عريسًا بانتظار عروسه.

تتسع ابتسامتي مع اقترابه لكنها تتجمد عندما يلتفت نحو الفتاة الجديدة مرحبًا بها.. تبتسم له بدورها وتمد يدها، تضحك على شيء ما يقوله؛ بينما نظراته تخترق كل بوصة منها.

أشعر بالضيق فأقلب بالمجلة بتوتر.. صوت ما يأتي من خلفي التفت لأجد عامل المقهى يستأذن بأخذ كوب القهوة، لم ألاحظه من قبل!.. رُبما لأنه أقل العاملين وسامة بالمقهى!

سألني إن كنت أريد قدحًا آخرًا من القهوة، حقيقةُ لم أكن أرغب بقدح آخر منها بل أردت الذهاب بعيدًا لكن الفضول قمعني.. أريد رؤية ما يحدث بين تميم والفتاة ذات النمش.

-حسنًا أريد قدحًا من القهوة، دون سكر.

-أتريدين حليب؟

صوته.. شيءٌ ما بصوته اشتبك بعقلي، عانق ذكرياتي القديمة.. لقد فشلت بتحديد الشعور الذي احتواني؛ لكنه كان مؤذيًا لطيفًا بنفس الوقت.. إنه (وجعي الجميل)، ولا أدري لماذا انتابتني الرغبة بسؤاله عن اسمه.

-خالد.

هكذا أجابني...

-خالد...!

هكذا أخذت أردد خلفه: خالد... حسنًا يا أستاذ خالد، أريد بعض الحليب.. بعض البسكوت.. أي شيء يعيد لي وزني الضائع.

اتسعت ابتسامته، أسمرٌ هو، وضعيفةٌ أنا أمام الرجال السُمر!.. شيء ما به، رُبما صوته.. يُعيدني لإبراهيم.. نعم.. إبراهيم.. الحُب الأول.. الفشل الأول.. اللعنة!

ذهب وتعلق نظري به، شردت معه حتى أنني لم ألاحظ حملقة تميم بي، ولا تقدمه نحوي، لم ألاحظ سوى صوته الغاضب المفتعل للمرح: يبدو الأمر أصعب مما ظننت!

التفتت نحوه محاولة إدراك مغزى كلماته؛ فتابع: ذوقك سقيم باختيار الرجال.. سقطتِ بفخ ابتسامته من اللحظةِ الأولى!

ارتفع أحد حاجبي بعدم فهم ثم سألته: ما الذي تتحدث عنه!

ابتسم ببرود مجيبًا: أنا أوسم منه.. أليس كذلك؟.. لماذا لا ترمقينني بتلك الطريقة؟

ضحكت ضحكة صغيرة ساخرة، وأنا أهز رأسي متسائلة: وأي طريقة رمقته بها؟

زم شفتيه قليلًا ثم قال بهدوء: وكأنه يذكرك برجل آخر.

أغمضت عيني متسائلة بعدم تصديق: كيف بإمكانك تحليل الأشياء هكذا!.. وكأنك تعرفني!

فتحت عيني متوقعة رؤيته يبتسم بتفاخر، ولكني وجدته جامد الوجه.. قال بمرارة: لم أخمن هذا من الأساس، لقد قلت أول شيء جاء بفكري، ولكني لم أتوقع أن يكون حقيقة!

تنهدت بعمق: لماذا تبدو مستاءً إذن؟!

-لأنني أريدك أن تصبحي حبيبتي.

عكست نظراتي مدى البلاهة التي شعرت بها إثر كلماته.. هززت رأسي متعجبة: أمجنونٌ أنت!.. أنا أتيت هنا كي أتخلص من الورم لا كي أقع بقصة حب غريبة مع شخص غريب لا أعلم عنه شيء، ولا أريد أن أعلم عنه شيء.

صمتت قليلًا ثم تابعت بعصبية: أنا امرأة بمنتصف الثلاثينات.. تزوجت مرتين.. وقعت بالحب أكثر من مرة.. كل شيء انتهى بالنسبةِ لي.

-لو انتهى لما أتيتِ للوادي من الأساس!

صحت به: لا تسخر مني، ولا تحاول جعلي أضحوكة.. ابحث عن أي امرأة من جميلات الوادي، واستخدمهن في إرضاء غرورك.

-كم رجل أحببت حقًا؟

لم أجبه؛ لكنه كرر الكلام فقلت بنفاذ صبر: ثلاث مرات أو أربعة أنا لا أذكر.. ولا أريد تكرار الأمر لأنه بات مملًا.

-أتؤمنين بالحب يا سارة؟.. الحب من النظرة الأولى؟

أجبته ساخرة: لا.. لا أومن بهذا النوع أبدًا، الحب يأتي مع الوقت رزينًا ثابتًا.

-أي أحمق علمك هذا!.. أكان هذا كل ما مررتِ به!.. أتساءل إن كنتِ وقعتِ بالحب من الأساسِ!

-أتؤمن أنت به؟

-بالطبع أومن بالحب.. أومن بالأشياء التي أستطيع الشعور بها، الأشخاص الذين أراهم.

-لا أدري لماذا شخص مثلك لا يؤمن بوجود الله يؤمن بالحب!

-قلت لكِ من قبل أنا أومن بوجود الله.. المشكلة بالإيمان بالله ذاته!.. ليس بوجوده!

هززت رأسي قائلة: يا الله!.. ما الذي يمنعك عن الإيمان إذن؟!

أجابني بنبرات هادئة ساخطة: أنا لم أخلق كي أكون مهرجًا أرفه عن خالقي، أرضي غروره بعبادتي له!.. أظل أعبده كما يعبده ملايين حول العالم غيري، وبالنهاية أحصل على مكافئتي.. كن كلبًا جيدًا، وستحصل على عظمة كبيرة!

لم أستطع استيعاب ما يقوله، رُبما لا أريد استيعابه من الأساس.. صحت به كي يتوقف وأنا أسد أذني: توقف.. توقف.. توقف.

هزني قائلًا: أكره -من أكثر ما أكره- الجبناء أمثالك!.. أنتِ جبانة للغاية.

أطحت بيديه بعيدًا عني قائلة: وأنا أكره -من أكثر ما أكره- الأشخاص مثلك فاقدي الإيمان!

-ولماذا أملكه من الأساس!

تابعت صياحي، وأنا أدفعه بصدره: لقد أعطاك خيار عبادته أو الكفر به.. لو أراد لجعلك تعبده دون إرادتك.

-هُنا تكمن التسلية!.. الله لديه الملائكة يعبدونه ويسبحون بحمده ليل نهار دون نوم أو ملل أو كلل؛ الأمر ليس مسليًا أن تمتلكي قطًا أليفًا شرازيًّا يلتف حول ساقك ليل نهار محاولًا إظهار مدى روعته، لقد شعر الإله بالملل فخلق البشر وسط صياح الملائكة: (نحن أفضل لماذا تخلق مجموعة من الأشخاص يرتكبون ذنوب؟!).. ببساطة ليعودوا يتوبون.. يبكون.. يتضرعون، هُنا يكمن الغرور يا سارة.. الغرور الإلهي!

فقدت القدرة على النطق للحظات، ثم أجبته: لما لا تكون ممتنًا لكونك حيًّا، لما لا تكون ممتنًا لوجودك!.. لكونك شخص قادر على الاختيار؟!

-لم أطلب وجودي هذا من الأساس كي أكون ممتنًا له!

أجبته بحقد عفوي: اذهب وانتحر إذن!

-الانتحار مجرد وسيلة مواصلات سريعة لجهنم؛ لهذا عليّ أن أعيش حياتي كما أريد حتى يأتي وقت جهنم؛ وقتها سأدخلها بقلبٍ مستريح، لقد فعلت ما أريده.. كفرت ونلت جزاء كفري.

همست: اذهب.. أرجوك اذهب ولا تتحدث معي من جديد.

تملكني الارتياح عندما وجدت النادل قادمًا بالقهوة.. همس تميم قبل مغادرته: أتعرفين تلك الفتاة ريما؟

قطبت سائلة بينما يضع النادل القهوة بهدوء: ماذا بها؟

قال تميم دون أن يراعي وجود النادل: إنها مُلحدة.

اتسعت عيناي بذهول.. تلعثمت متسائلة: إنها.. ماذا؟!

أجابني ببطء: مـــ..لـــــ..حـــــ..د...ة.

انصرف النادل بهدوء كما أتى دون أي تعليق، أو نظرة غريبة؛ وكأن تلك الأمور مألوفة له!

-أنت كاذب!

هز كتفيه قائلًا وهو ينصرف: مشكلتك أنتِ لا تريدين رؤية الأمر بوضوح.

رفعت صوتي بالسؤال: أي أمر؟!

توقف عن السير مجيبًا: أن جميع من بالوادي فاقدي الإيمان بشكلٍ أو بآخر.

تابع سيره تاركني بذهول عميق لم أستطع منه الفكاك.

(أنا يا عُصْفُورَةَ الشَجَنِ مثلُ عينيكِ بلا وَطَنِ

بي كَمَا بالطفلِ تَسرقهُ أولَ الليلِ يدُ الوسنِ

واغترابٌ بي، وبي فرحٌ كارتحالِ البحرِ بالسفنِ

أنا لا أرضٌ ولا سكنٌ أنا عيناكِ هُما سَكَني)

-١٢-

(دق الهوى عالباب قلنا حبايبنا

قلنا الحلو اللي غاب جايي يعاتبنا

قمنا فتحنا الباب والشوق دوبنا

تاري الهوا كذاب قصدو يداعبنا)

لم أمر بهذا الوقت منذ فترة طويلة، فقدان الرغبة بكل شيء.. فقدان الرغبة برؤية أي شخص.

تميم يعبر من وقتٍ لآخر أمام النافذة لكنني أغلقتها، لم يحاول أن يطرقها، كما أنه لم يحاول أبدًا طرق باب غرفتي.

أشعر بالوحدة.. لم يطرق بابي أحد سوى (ريما) كي تؤكد موعد المقامرة.. فنحن نحتشد بمنتصف الليل ثم نبدأ بالمقامرة لا أحد يستطيع التخلف.

لقد فقدنا فتاة أخرى البارحة بات الأمرُ مملًا!...

طوال الوقت الماضي كنت أفكر بكلام تميم؛ لقد اعتقدت أن روّاد الوادي يمتلكون صفتين لا ثالث لهما: التهور والجنون؛ لكن أيفتقرون حقًا لعمق الإيمان؟.. هل يفتقرون للإيمان من الأساس؟

صوت فيروز يؤلمني، أترك سريري لأركع فوق ركبتيّ ثم أبدأ بالبكاء.

-يا الله، أنا مؤمنة بك.. أنا حقًا مؤمنة.

تسيل دموعي بغزارة هل أنا مؤمنة؟ لماذا أتيت للوادي إذن محاولة البحث عن وسيلة للشفاء! طوال تلك الفترة لم أفكر بربي، لم أفكر بأي شيء سوى قدرة الوادي السحريَّة.

تميم لديه كل الحق، أنا لا أختلف كثيرًا عنهم.. أنا شخصٌ كافر مثلهم جميعًا.

لقد أخذت أردد طوال حياتي لماذا يحدث لي كذا وكذا، أخذت أردد لماذا أعاني وحدي ولا يعاني أحد مثلي؟!

لماذا استولت صديقتي بابن خالتي رُغم أنها تعلم مدى حبي له!.. لماذا مات رامي؟

لماذا طلقني محمود؟.. لماذا خانني أيمن؟

حب فاشل، خطبة فاشلة، طلاقان!.. لقد مات رامي، مات وهو صغير يافع وأنا أحيا.. أتنفس وأرى واسمع وأسير؛ لكني لم أقل حمدًا لله قط!

أنا لم أقر بنعمة الله قط!.. أنا شخص جاحد كافر.. أنا شخص شعرت بأن الله يتجاهلني فأردت تجاهل كل الرسائل التي يبعثها لي.

لقد خنت أيمن كما خانني.. خنته مع امرأة أو هكذا أقنعته!

داليا.. رحاب.. دينا.. أميرة.. كم امرأة ضاجع؟ لا أدري حقًا؛ لهذا بدأت أكذب عليه، أثير شكوكه.. ثم أخبرته أنني أحب امرأة وأنني أسعد بوجودي معها.

أخبرته العديد من الأشياء متلذذة بكون الأمر مُذلًا لرجولته.

توقعت أن يضربني.. يشتمني.. ينعتني بالساقطة كما يفعل دائمًا؛ لكن كل ما استطاع التفوه به: أنتِ طالق!

لقد أيقنت أن سبب خيانة أيمن لي عدم قدرتي على الإنجاب.

لم أكن على علم بهذا حتى تزوجنا، بعدها بدأ باتهامي.. قال لي أن هذا سبب ترك إبراهيم ومحمود لي.

لم أحص عدد المرات التي كان يضربني بها.. يضربني بشدة حتى أفقد الوعي بخرطوم المياه، بحزام سرواله بأي شيء صالح للضرب.

ينزع ملابسي ويصب المياه المثلجة فوقي، يتركني واقفة طوال الليل عارية حتى يتعب وينام.

لم أجد شخصًا أشتكي له، ولا شخص أحيا لأجله.. رامي مات، وأمي هددتني أنها ستلقيني بالشارع لو أتيت لها حاملة لقب مطلقة للمرة الثانية؛ رُغم أن زيجتي الأولى والثانية كانت محض اختيارها وليس اختياري!

تقريبًا لم أختر شيء بحياتي سوى إبراهيم؛ ولأن اختياري بنظر الجميع كان خاطئ فعليّ ألا أختار شيئًا لآخر عمري.. لأنني أثبتت عدم قدرتي على معرفة الناس، واختيار الأشياء!

لهذا لم أخبرها بطلاقي عندما طُلقت.. قلت لها أنه سافر. كانت تعلم أنني طُلقت؛ لكنها ظلت تُكَذِّب نفسها.

أعلم أنني بأعماق قلبي كرهت خالقي؛ رُبما لأنني سأمت كراهية الجميع لي، وكراهيتي للجميع، ونفسي.. لم أجد شيئًا أصب كراهيتي فوقه.

لهذا ظاهريًّا صببتها فوق رأس أمي، لكن بقلبي أعلم أنني فقدت الإيمان.

ربما لهذا أنا هُنا.. لأنني لا أختلف عنهم كثيرًا. أنا فقط أخدع نفسي كما قال تميم.

لم أستطع تحمل كل الألم الذي مررت به، هل من الرائع أن نُولد لنُعذب!

لدي نعَم كثيرة وأنا ممتنة لها؛ لأن غيري لا يملكونها لكننا جميعًا نعاني..كل شخص مننا تحيط به معاناة مختلفة.

أن أومن بالله وأنا لا أراه، وأنا لا أعرفه.. مطالب مني معرفته بقلبي.. وحمده وشكره لأنه منحني الحياة!

الحياة نعمة؛ لكن كونها نعمة يتوقف على عدة أشياء: المال، الجمال، السلطة، السعادة، راحة البال، الحب.

العديد من الأشياء التي يجب أن تدعم الحياة؛ كي تكون سعيدة، وكي أكون شاكرة من أجلها.

لكن أنا لم أملك أي شيء من مقومات الحياة السعيدة تلك، الحياة التي تستحق الشكر!

لم أمتلك سوى الألم، والقرف، والغم، والنكد.. لم أمتلك سوى مقومات النقمة.. لا السعادة، لم أمتلك سوى مقومات الثورة والتعاسة.

لم أمتلك سوى الورم، وعدم القدرة على الإنجاب.. الخيانة.. الـــ(القحبة) التي أدعوها أمي.

حتى رامي، الشيء الوحيد الذي أحببته أخذه الله مني!

لماذا أخذه؟.. ليس عدلًا أن أظل أُعاني طوال حياتي مطالبة بعبادة الله؛ وبالنهاية أحصل على الخلود بالجنة!

وحياتي تلك!.. السنوات الجحيميَّة تلك!.. سأظل أُعَذب لا أدري إلى متى!.. سأظل صابرة متحلية بالإيمان إلى متى وأنا لا أمتلك شيم الأنبياء والرُسل!

سأظل هكذا حتى يتم غمسي بالجنة فأقول: يا الله لم أرَ شقاءً قط!

دموعي لا تتوقف بينما كلمات تميم تعود لي: الإله أيضًا بارع بالكذب.

أقف لأصرخ وأجذب خصلات شعري القصيرة.. أنظر لنفسي بالمرآة وقد لطخ وجهي الكحل.. أكسرها.. أكسرها ثم أبدأ بتكسير كل شيء، حتى أتناول الراديو أحمله بعنف وأكاد أكسره؛ لكني أضعه

مكانه.. فصوت فيروز يؤنس وحدتي، لا أستطيع أن أكسره لأنني سأكون وحدي.. لا أريد أن أكون وحدي.

أصرخ: أخلقتني كي أكون وحدي؟.. تُرضيك مأساتي تلك؟.. تُرضيك!.. أليس كذلك؟

أصرخ من جديد، أصرخ وأصرخ.. وأصرخ حتى يُبح صوتي.. أرتمي أرضًا باكية نائحة.

رُبما تملكني النوم بعدما فقدت قدرتي على البكاء.. لكن عندما فتحت عينيّ وجدته أمامي يراقبني بابتسامة باهتة.. ابتسامة لست معتادة على رؤيتها.

شعرت وكأنه تميم آخر.. قال لي بصوت خافت: لا تنسي إغلاق باب غرفتك.. ولا تصرخي هكذا وحدك من جديد؛ فأنا لم أستطع النوم من صوتك المزعج.

دفعته بعيدًا ثم وقفت ممررة يدي فوق وجهي محاولة مسح خطوط الكحل.

لقد تملكني الارتباك.. وجوده وقربه هكذا، لماذا يتدخل بحياتي!

سألته: لماذا أنت هُنا؟

-لقد أيقظني صراخك المزعج.

شخرت هازئة: ليس سببًا.

ابتسم بهدوء ثم قال ساخرًا: حسنًا، لقد أتيت كي أرى ما بكِ.

-ولماذا تريد معرفة ما بي؟.. أنت فضوليٌّ للغاية!

-لست فضوليًّا، تستطيعين اعتباري ماذا!.. أممم ملاكك الحارس؟

سخرت منه: ملاكي الحارس!.. ألم تقل أن الملائكة تكذب!

-لهذا أنا ملاكك الحارس.. مجرد كاذب جديد ينضم للركب.

جمدت ملامحي لكنه تجاهل الأمر متسائلًا، وهو يتوجه نحو النافذة يفتحها:

-لماذا كنتِ تصرخين هكذا؟.. يبدو أن ذكرياتك بدأت تنفذ، حاولي الحفاظ على البقية الباقية.

ارتميت فوق فراشي قائلة: أدنى حد للمراهنة اليوميَّة ثلاث بطاقات.. عددٌ قليلٌ للغاية.

وقف أمامي قائلًا بعدم فهم: لقد راهنتِ البارحة بـــ خمسة عشر بطاقة يا سارة!.. توقفي عن قتل نفسك.

-سأموت آجلًا أم عاجلًا، لهذا أريد الانتهاء من هذا الهُراء سريعًا.

-لماذا أتيتِ إلى هُنا طالما تريدين إنهاء حياتك سريعًا!

-يبدو أنني ضللت طريقي.

-يبدو أنكِ لا تملُكين طريقًا من الأساس يا سارة!

سكتُّ، ولم أستطع مجابهته بالكلام؛ لديه كل الحق فأنا لا أملك طريقًا من الأساس!

بدأت الدموع تفيض من جديد، دموع خيبة أمل كبيرة فشلت بتحديدها!

سألني مستلقيًا جانبي: لماذا تبكين الآن؟

-أنا فقط أشعر بالوحدة والألم، ولا أدري لماذا لا أستطيع الكف عن البكاء.

قال مازحًا وهو يقترب مني ماسحًا دموعي: أنا حقًا أكره ذلك النوع من البشر الذين لا يكفون عن التذمر.. لماذا فقط لا يكون الشخص منا ممتنًا ولو ليومٍ واحدٍ فقط بحياته!

قلت وأنا أبعد يده عن وجهي: لا تتحدث عن الامتنان والشُكر.

فرد جسده جواري محدقًا بسقف الغرفة قائلًا: أنا ممتن.. أنا حقًا ممتن لحياتي لكني لست ممتنًا على الإطلاق لكوني أحيا بهذا العالم.. عالم قذر مليء بالحروب والثورات.. يسقط طاغية ليأتي آخر.

-أنت لا ترى أي حكمة بخلق العالم من الأساس، أنت لا ترى أي حكمة في خلق الأشخاص كي يُعانوا، أن يخلق الله الشر كي يصارع الخير.

همس آسفًا: بالضبط.. لا أجد تفسير آخر سوى التسلية.

التفتت إليه متسائلة: لو كنت الرجل الوحيد بالعالم وأنا المرأة الوحيدة بالعالم، ووقعت بحبك هل ستكون ممتنًا؟

ابتسم قائلًا: ليس هناك غيرنا، بالطبع سأكون ممتنًا.

تابعت: ولو خلق الله عشرة رجال ولم أختر أحدهم واخترتك أنت.. أيهم تفضل؟.. أن أختارك من بين عشرة رجال.. أم أختارك لأنك الوحيد الذي أراه؟

صمت ولم يجبني؛ فتابعت: من الجيد أن نمتلك نعمة الاختيار، من الجيد أن نجد الخير والشر ونختار أحدهما حتى لو كان شرًا.. الاختيار بحد ذاته نعمة، من الجيد أن يكون هناك ابتلاء.. ألم كي نُدرك السعادة عندما تكون بين أيدينا، كذلك الصحة لن تدرك هبتها إلا عندما تمرض.

ابتسم ولم يجب فتابعت: تظنني مجنونة!.. لقد كنت أبكي منذ قليل وأشعر وكأنني فقدت إيماني كله، لكني مؤمنة حتى لو ظننت عكس ذلك، قد أشك ببعض الأحيان لكني مؤمنة يا تميم.. وأنت أيضًا، رُبما تفوقني إيمانًا.

-أتعلمين لماذا أتت ماريا إلى الوادي؟

لم أدرك مغزى سؤاله؛ لكنه تابع دون انتظار إجابتي: لقد أتت لأنها تريد استرجاع إيمانها، لقد فقدت إيمانها وتريد استرجاعه يا سارة.

-وأنت يا تميم.. ما الشيء الذي تريد وهبه حياتك؟

صمت طويلًا حتى شككت أنه سيجيبني من الأساس.

-حريتي.. الحرية يا سارة.. أريد أن أكون حرًا.

مد يده ممسكًا بيدي تركت تشابكت أصابعنا.. التفت إليه فوجدت دمعة بطيئة تنحدر برفق من زاوية عينه.

هو أيضًا ذكرياته أوشكت على النفاذ، منذ أتى وهو يقامر كالمجنون.. وكأنه يريد التخلص من كل شيء.

همست له: أنا هُنا.

بنفس الابتسامة التي لا تفارقه أجابني: لا أحد يبقى يا سارة.. سنغادر جميعنا.

حاول التحكم بصوته؛ لكنه هدج فلم أتحمله.. طوقته بذراعيّ وطوقني هو بدوره.

طلبت منه أن يقبلني ففعل.. قبلني بهدوء قبلة لا تحمل أي مشاعر؛ وكأنه يبتعد عني بملايين السنين الضوئيَّة، حتى أنني شعرت أنه لا يراني.

رفعت يدي ممسكة بوجهه حتى ينظر لي.. عيني بعينه.

كانت عينه مليئة بدموع أبيَّة لا تخرج.. اقتربت منه وقبلته بعنف.

لكنه لم يُحرك ساكنًا.. سالت دموعه بغزارة.. تميم العابث المبتهج كان يبكي!

تميم الذي سخرت منه دومًا ـــ وتوقعت ألا تغادره الابتسامة كان يبكي!

احتضنته من جديد، وبللت دموعه خدي وعنقي...

سألته: لماذا تبكي يا تميم؟

أجابني وهو يبعد ذراعي عنه ويمسح دموعه: لا شيء.. تذكرت شيئًا مؤلمًا.

اعتدل جالسًا فجلست بدوي، وطوقت خصره بذراعي قائلة: أخبرني.. ما الذي يؤلمك؟

أزاح ذراعيّ برفق ثم وقف.. لم يجبني ولا أدري لماذا خفت أن أسأله من جديد.

توجه نحو الباب، لكن قبل ذهابه قال بهدوء: هناك أشياء أُفضل ألا تعلمينها عني.. هناك العديد من الأشياء التي أفضل ألا تعلمينها عني.

حاولت استيعاب كلماته الغريبة، وأنا أراقبه يفتح الباب ويخطو خارج الغرفة؛ لكن قبل أن يغلق الباب وقف قليلًا ينظر إليّ بابتسامته المستفزة المعتادة: حقيقةً يا سارة، أنا لا أريدك أن تعرفي عني أي شيء.

همست: أي شيء!

ابتسم: أي شيء.

وقبل أن أسأله لماذا.. غادر!

(ودق الهوى على الباب قلنا الهوى كذاب

ولما فتحنا الباب طلوا حبايبنا)

-١٣-

(بتذكر آخر مرة شفتك سنتا

بتذكر وقتا آخر كلمة قلتا

وما عدت شفتك.. وهلا شفتك

كيفك أنت.. ملا أنت)

-صباح الخير.

اخترقني صوتها المرح وابتسامتها.. كانت تلك ريما.. لكنها اليوم بات شعرها أشقر.. أشقر لامع، غريب، لا يليق بها.

قلت وأنا أبادلها الابتسام: مساء الخير يا ريما!

ضحكت قائلة: لا تهتمي كثيرًا فأنا مبتهجة اليوم للغاية، صحيح أبإمكاني شرب بعض القهوة معكِ؟

هززت رأسي مشيرة لها بأن تأتي من الباب، فأنا كالعادة أستند للنافذة أشرب قهوتي، استمع لفيروز مراقبة الغروب.

لم تطرق الباب بل دفعته دفعًا، وعلى شفتيها ابتسامة كبيرة.. جلست فوق السرير ثانية ساقيها تحتها برشاقة القطط.. ثم قالت دون مقدمات: اليوم يا سارة سأقوم بالمراهنة بآخر ثلاث ذكريات سعيدة لديّ.. الجميع يقول أنني سأخسر لكني واثقة من الفوز.

كنت أصب لها بعض القهوة عندما انتبهت لما تقوله، ابتسامتها السعيدة اللامبالية.. تلك الفتاة ستموت اليوم؛ لكنها تملك الشجاعة كي تجلس أمامي الآن مبتهجة وكأنها ستنتقل للفردوسِ الأعلى!

لم أنتبه لما أفعله حتى شعرت بالقهوة تحرق يدي، قفزت متناولة الفنجان من يدي قبل أن ألقيه.

أخذت أنفض يدي من الوجع، بينما وقفت تراقبني حائرة لا تعلم ماذا تفعل.

تناولت محرمة ورقية، ثم قلت وأنا أمسح يدي برفق: لماذا تبدين واثقة هكذا؟

هزت كتفيها ثم أجابتني: أنا واثقة منذ البداية، لو لم أكن واثقة بالفوز لما أتيت إلى هُنا.

صمتت قليلًا ثم ابتسمت ابتسامة واسعة قائلة: كل شيء بحياتك يتعلق بالثقة، ثقتك بالحصول عليه.

سألتها متذكرة ما قاله تميم عنها (مُلحدة): وبمن تثقين؟

-آلهة الوادي طبعًا!

نظرت لها بتعجب.. إنه مجرد اسم للملاك الأصليين للوادي، نحن لا نعلم عنهم أي شيء.. نتعامل فقط مع بعض المساعدين.. لكنها تثق، أنا لم أعرف منذ البداية لماذا أتت إلى هُنا، ما الشيء الذي ترغب بالحصول عليه؟

سألتها: لماذا أتيتِ إلى هُنا يا ريما؟

اتسعت ابتسامتها، ولا أدري إلى أي مدى ستظل تتسع!.. لقد ضقتُ ذَرْعًا بها.

غمزت وهي تضع سبابتها فوق شفتيها هامسة: إنه سر.

نظرت لها ببرود فقالت وهي تضحك: أنا فقط لا أستطيع أخبارك.. أنا لا أرى معنى لذكر أسبابنا، نحن لم نأتِ إلى هُنا كي نتبادل الأسرار، والمشاكل، ونقع بعلاقات غرام ليس لها معنى.

شعرت وكأنها تتحدث عن تميم، أنا لست واقعة بغرام تميم؛ بل لا يعجبني من الأساس!.. أو رُبما هذا ما أحاول إقناع نفسي به!.. اللعنة لقد فقدت اهتمامي بالرجال منذ زمن طويل لماذا أفكر بهذا الرجل الآن؟!

سمعتها تتابع: أنا لست كتميم يحب أن يتحدث عن حريته المجهولة، بينما يتسكع حول ماريا طالبًا رضاها.

لم أعطِ لها اهتمامًا لكنها تابعت: ماريا!.. عاهرة تحمل اسم السيدة العذراء!

انفجرت ضحكًا وأنا أراها تتحدث عن السيدة العذراء بهذا التبجيل!

لكن تملكني بعض الضيق لحديثها عن تميم وماريا بهذا الشكل، كما تملكني بعض الارتياح لأنها لم تتحدث عني أنا وتميم، أو رُبما فعلت أمام ماريا!.. فأنا لا أعلم شيئًا عن ريما سوى جنسيتها، على ما أذكر ريما تونسيَّة.. رُبما.. مَنْ يَعلم!

تمددت فوق سريري ناظرة للسقف بملل قائلة: ليس كل الملحدين يستخفون بالأديان أو يسبون ويلعنون المقدسات يا سارة.. أنا ملحدة لكني أحترم جميع المعتقدات.

ابتسمت لها.. إنها حقًا رائعة رُغم إلحادها!.. وربما ليست ملحدة من الأساس!

سألتها مجددًا: ما الذي تبحثين عنه يا ريما؟

-الخلود.

لم أستطع تحديد رد فعلي! لقد ظللت صامتة للحظات طويلة ثم سألتها بهدوء: أي خلود؟.. آلهة الوادي لا يهبون الحياة!

لم تنظر لي ولم أنظر لها؛ لكنني شعرت بابتسامتها: لا يهبون الحياة لكنهم يهبون الخلود، لا يهبون الحياة لشخص ميت؛ لكنهم قد يهبون الخلود لشخص حي.. أتؤمنين بتناسخ الأرواح؟

لم أجبها تابعت كلامها... الخلاصة أنه لا يوجد شخص خالد من الأساس، هم سيقومون بإجراء تجربة.. الأولى من نوعها.

-أتضمنين نجاحها؟

-نعم.. لهذا أنا أقامر.. لدي يقين أنني سأفوز، وستنجح تجربتي مع الخلود.

-يقين بمن؟

-آلهة الوادي كما ذكرت، ونفسي قبل أي شيء.

-ألا تؤمنين بوجود خالق لهذا الكون!

أجابت دون تفكير: لا.

مجرد التفكير بأن كل هذا الكون يسير هكذا وفقًا لهواه، أو للطبيعة شيء غير منطقي بالمرة لكني سايرتها: ماذا لو متِ؟

-سأتحول لتراب، لطير، لحيوان.. لأي شيء.. رُبما أولد من جديد في جسد آخر، لكنني أريد الخلود، أريد العيش والدراسة وتعلم ملايين العلوم، أريد أن أهب حياتي للعلم يا سارة.. أريد أن أكون طبيبة تمنح الحياة للأشخاص.

-الطبيب لا يمنح الحياة للناس يا ريما.. الله يفعل.

-لا يوجد إله يا سارة، قلت لكِ لا يُوجد.

-ماذا لو وجد؟.. ماذا لو متِ ووجدتِ أن هناك إله بالفعل، ثواب وعقاب؟

صمتت قليلًا مقطبة جبينها، ثم قالت بابتسامة واسعة كالعادة: وقتها ستكون حقًا مشكلة عويصة!

اللعنة!.. إنها تتحدث عن الأمر وكأنه خازوقًا ستتلقاه!

وقفت فجأة قائلة: عليّ أن أذهب الآن.. لقد مررت فقط كي أودعك، رُغم أنني ودودة مع الجميع لكني أفشل دائمًا في عقد الصداقات، أنا لست جيدة في التقرب من الناس، لهذا رُبما أحقد على تميم؛ فهو يتسلل لأنفس الجميع.

صمتت قليلًا ثم تابعت، وكأنها تذكرت شيئًا: كلامي عن ماريا كما هو، هي عاهرة ابنة عاهرة.. المهم.. أريدك فقط أن تثقي في الفوز وستفوزين.. فقط لا تترددي أبدًا يا سارة.. لا تترددي.

تركتني حائرة بكلماتها عن الثقة والتردد، لم أثق بشيء طوال حياتي كلها.. ظللت أفكر بما قالته حتى سحبني صوت فيروز بعيدًا عن ريما وكلماتها.

(بيطلع عبالي أرجع أنا وياك

أنت حلالي.. أرجع أنا وياك

أنا وأنت.. ملا أنت)

-١٤-

(بتسأل علي كتير وبتحبني

بعرف هالحكي، وحافظة هالحكي

كل الحكي حلو، ومع إنه حلو

ليش بيضله إحساسي يقلي لاء؟!

في شي بدو يصير، في شي عم بيصير)

جاء المساء.. حقيقةُ كنت خائفة كما لم أخف من قبل. ارتديت ثوبي الأزرق المعتاد وذهبت لصالة المقامرة.

تميم كعادته بالأيام الأخيرة يقف ملتصقًا بماريا، بينما ريما تتودد للجميع كعادها مدعية أها لا تجيد التواصل وعقد الصداقات.. وأنا -كعادتي- أقطب بوجوههم!

ارتديت اليوم الشعر المستعار من جديد، ووقفت أراقب ريما وهي تقامر بآخر ثلاث بطاقات.

بدأنا الرهان.. لا أدري لماذا صرت حذرة بأيامي الأخيرة في اللعب، بالطبع ليس سمعًا وطاعةً لتميم؛ رُبما لأنني بالفعل خائفة من الموت كمدًا وغمًّا!

بدأت ريما تقامر اختارت رقم (٧) لكنها لم تفز!.. كالعادة لم يفز أحد!

توقعت عند خسارتها وفقدانها ذكرياتها الأخيرة أن تبدأ بالعويل والصراخ؛ فعندما نخسر ذكرياتنا السعيدة حتى لو قمنا بتدوينها عندما نعود لنقرأها نشعر كأنها غريبة عنا تمام الغرابة، وكأننا لم نمر بها أبدًا!

كذلك أي ذكرى سعيدة أو تعيسة حصلنا عليها بالوادي لا تُحسب.. لكن المثير للشك أن ربما كانت تبتسم كعادتها؛ لكن ابتسامتها تلك المرة كانت صفراء لا مبالية!

ماذا يحدث! أين تدفق الذكريات التعيسة!

سمعت تميم يسألها: أنتِ لا تملكين ذكريات تعيسة؟

أجابته بهدوء: أنا لا أدري ما التعاسة من الأساس!

صاح بها: لماذا أتيتِ إذن؟!

تحدثت إليه بهدوء؛ وكأنها تتحدث لطفل صغير: الوادي لا يقتصر فقط على التعساء.. لسنا جميعنا تعساء، هناك من جاء من أجل المال، من جاء من أجل الشهرة، الحرية، المرض، الفقر.. راحة البال، الحب؛ بل هناك من أتى كي يُكدر حبيبته السابقة، ومن أتى كي ينتقم من جاره!

لقد تفهمت نظريتها وعلمت أن هذا فوزها.. ولا أدري كيف ستحصل على الخلود بهذه الطريقة! لقد خسرت لكنها لن تموت! ستحيا بالوادي.. ستخلد بالوادي!

أتظن أنهم سيتركونها حتى تموت بالوادي!.. أتعتقد أن مكوثها بالوادي يعطيها الخلود!

لقد تابع تميم صياحه لكن ربما تجاهلته تاركة قاعة المراهنات عندها شعرت بالملل، وشرعت في الذهاب إلى غرفتي.

كنت بطريقي عندما اعترض تميم طريقي فسألته: كيف حالها؟

-من؟

-فتاتك الجديدة.

سألني مازحًا: أي فتاة فهن كثيرات؟

-ماريا.

-إنها ليست فتاتي.

-حسنًا لماذا أنرت طريقي بطلّتك البهية؟

– لقد افتقدتك.

شخرت ساخرة، ثم سألته: هكذا؟!.. فجأة!

صمت قليلًا، ثم اقترب مني قائلًا بنفاذ صبر: لقد حاولت تجاهلك، لكني لم أستطع.. كعادتك لا تهتمين لي.

أجبته نافية: أنا حقًا أهتم!

ضحك ضحكة صغيرة، ثم سألني: هل أعجبك يا سارة؟

صمتت ولم أجد إجابة.. أغمضت عيني فاركة جبهتي لقد بدأ الصداع من جديد.

سمعته يهمس: أعتقد أنني واقع بحبك.

فتحت عيني متسائلة: تعتقد!.. الحب لا يحتاج لاعتقاد! الحب يحتاج إلى يقين!

-أنا أدعي حبك كما تدعين اهتمامك.. هكذا نكون (خالصين)!

طريقته التي حاول تقليد بها لهجتي المصرية أضحكتني.

قلت له ببساطة: أنت فلسطيني وأنا مصرية.. ونحن عالقان هنا وربما لن نخرج من هذه السفينة سوى غرقى لا أريد هذا.

-تكرهين غرام السفن؟

-الرحلات.. اللقاء المقدر والتقاء غريبان، هُراء التايتانك.. طالما كرهت هذا.

-لأنه يجعلك تبكين؟

كدت أنكر الأمر لكني صمتت ثم وافقته: نعم.. لأنه يجعلني أبكي.

أنا أتعجب حقًا من الطريقة التي يفهمني بها، ويبدو وكأنه كالعادة التقط بعض أفكاري فوجدته يقول:

-أنا أفهمك تمامًا يا سارة، أفهمك وأعرفك لو فقط تتركيني، سأجري منكِ مجرى الدم.

ضحكت لكلامه؛ رومانسيته مضحكة بالنسبةِ لي.. مضحكة للغاية.

رددت مجددًا: وقتنا هنا محدود، كما أننا...

قاطعني: عربيان.. لست فلسطينيًا وأنتِ مصرية بل (عرب)!

ها هو سيبدأ كما يبدأ الجميع ليتحدث حول علاقة العرب بالمصريين الذين لا يعتبروهم عرب من الأساس، فنحن يهود العرب المنبوذين.. اللعنة عليه.

حشدت كل الألفاظ المقذعة بفمي على أتم الاستعداد كي أطلقها كلها بوجهه؛ لكني وجدت ريما تقترب مني حاملة بيدها علبة صغيرة.

قالت وهي تعطيها لي: إنها هدية لكِ.

أمسكت العلبة أتفحصها ممتنة لوجودها؛ فلولاها لبدأت شجار مع تميم رُبما انتهى بمقاطعة كالعادة.

فتحت العلبة بفضول فوجدت بها سلسلة معلق بها مفتاح الحياة.

قالت شارحة: إنه رمز الخلود.. إنه تعويذتي الخاصة.. الشيء الذي يبقيني متفائلة.

تفاؤل!.. إنها حقًا معتوهة!.. لقد شعرت بالضيق عندما رأيت مفتاح الحياة بل شعرت برغبة عارمة بالبكاء.. حسنًا أنا لن أبكي.. لن أبكي أمامهما.

أخرجني صوت تميم من ملايين الأفكار السوداء عندما قال لريما: ستكونين غبية لو اعتقدتِ أن وجودك بالوادي سيمنحك الخلود.

ابتسمت ريما قائلة: رُبما كلامك صحيح، لكن على مدار ثلاث سنوات قضيتهم بالوادي لم أكتسب شعرة بيضاء واحدة جديدة بالعكس لقد بت أكثر شبابًا!

-إنه شباب زائف.

هكذا ألقى تميم الكلام بوجهها وكأنه يسبها.

وقفت أراقب الحوار ممتنعة عن التدخل.. وبدأت أستوعب ما يجري حولي.

-وإذا نجح الأمر؟

-ستموتين من الملل!

-ملل!.. بهذا الوادي؟!.. أأحمقٌ أنت!.. هذا الوادي ما هو إلا يوتوبيا.. إنه عالمٌ آخرٌ!.. أأنت مجنون!.. أستطيع الدراسة هُنا التسوق العمل، كل شيء أستطيع فعله هُنا.

-أنتِ مثلهم.

-مثل من؟

-عاملي وادي الانتظار.. إنهم مثلك مجرد مقامرون لا يملكون ذكريات سيئة.

-أنت أذكى مما تصورت!

لا أدري إن كانت جملتها تقصد بها الإطراء أم الذم؛ لكني آثرت الابتعاد عنهما.. تركتهما يتشاجران سويًا، وتوجهت نحو غرفتي، وقبل أن أدخلها رميت مفتاح الحياة بعيدًا؛ فليرزق التفاؤل والسعادة والخلود لمن يشاء فأنا لا أعترف بهذا الهراء.

(تمرق علي كتير، وبتخصني
بعرف هالقصص، حافظة هالقصص
كل اللي قلته حلو، ومع إنه حلو
ليش بيضله إحساسي يقلي لاء؟!
في شي بدو يصير، في شي عم بيصير)

-١٥-

(عندي حلم فيك، عندي ولع فيك

بيكفي شو بدك أنه يعني موت فيك

والله رح موت فيك، صدق إذا فيك

بيكفي شو بدك مني إذا متت فيك

معقول في أكتر!.. أنا ما عندي أكتر!

كل الجمل يعني عم تنتهي فيك)

صوت فيروز المخملي يأتيني من جديد.. لقد حاول تميم طرق بابي عدة مرات لكني لم أهتم.. ظللت طوال الليل أرقص لا أدري سر الابتهاج المفاجئ؛ صراحةً لم أعد أهتم لأمر هرموناتي المتقلبة.

لقد اكتشفت بعد هذا العمر الطويل أن كوني امرأة ليس بالأمر السيء طالما أنا بعيدة عن بلدي.

لا أدري كيف انتهى الأمر بين تميم وربما رُغم فضولي القاتل إلا أنني أردت إخفائه.

صوت فيروز يبهجني اليوم.. أرقص من جديد.. الحياة ستكون رائعة.

تميم سيطرق بابي من جديد أنا أعلم.. أيحبني حقًا؟.. أنا لست مهتمة على الإطلاق.. لا بل مهتمة.. لست مهتمة كثيرًا.. بل قليلًا فقط.

-اللعنة!

أصرخ.. شعور سيء ينتابني..أهذا نفاذ الذكريات السعيدة؟!

الهرمونات تعود للعب من جديد!.. التقلب المزاجي اللعين!

-صباح الخير.

-صباح الهباب!

هكذا أجبت دون تفكير ثم نظرت نحو النافذة كان يقف يراقبني بضحكة مكتومة. ابتسمت فابتسم بدوره ابتسامة كبيرة، ثم أشار لي كي أفتح الباب ففعلت.

دلف إلى الحجرة متسائلًا عن سبب رضاي عنه فجأة!.. لم أجبه؛ فأنا لا أدري!

-افتقدتك.

ها هو يعود لترديد هذا الهراء من جديد!.. نظرت له ببرود قائلة: محاولاتك البارعة لتعكير مزاجي دائمًا ناجحة.

اقترب مني قائلًا: أنتِ أيضًا ناجحة بتعكير مزاجي لكن دون محاولة!

-حقًا؟!

-إنها فطرة!.. يا للنساء!

تجاهلت كلامه مغيرة دفة الحديث: ماذا تريد؟

-قضاء اليوم برفقتك.

-وأنا لا أريد.

-أرجوك.

تميم يقول أرجوك!.. تميم يتوسل!.. ارتسمت ابتسامة مغرورة فوق شفتي.

-إنه مجرد طلب لا توسل!

اللعنة!.. ها هو يقرأ أفكاري من جديد!

-لماذا تمنعين نفسك من الإعجاب بي يا سارة؟

فاجئني سؤاله، ولم أجد إجابة مناسبة.. لكنه كرره من جديد؛ فأخذت أفكر، ثم أجبته بعد تفكيرٍ طويل: أنا لا أعرف عنك أي شيء، وأنت لا تريدني أن أعرف عنك شيء.. أنت لن تعطيني وعدًا بالبقاء وأنا أحب الوعود.

اقترب مني لامسًا خصلات شعري المتفرقة.. ثم بدأ يتحدث: الحديث عن الماضي لا يفيد، أنا لا أريد معرفة شيء عن ماضيكِ.. ولا أريد التحدث عن ماضيّ لأنه مؤلم، كذلك الماضي الخاص بكِ.

لم أجبه.. لديه بعض نقاط الصحة بكلامه؛ لكن لا يمكنني الإعجاب بشخص ممسوح الملامح، الماضي يُشكل جزء كبير من

المستقبل.. كذلك الحاضر.. وأنا أريد معرفة الماضي ومعاصرة الحاضر كي أتأكد من مستقبلي مع الرجل الذي أرغب بقضاء حياتي معه.

تابع كلامه: لا يمكن لأحد يقامر هُنا أن يعد شخصًا ما بالبقاء لجواره؛ لأنه قد يغادر في أي وقت جاعلًا نصفه الآخر يتألم.

-أحيانًا يجب علينا أن نحيا لحظتنا الحالية ولا نفكر بالغد.

-إذن لا داعي للوعود من الأساس!

همست: الوعود تعطينا الراحة اليوميَّة حتى لو فشلنا بتحقيقها، نحن لسنا آلهة.

-لهذا يجب ألا نعطي وعود زائفة، لهذا لا يجب علينا أن نخدع أنفسنا.

-الوعود ستمكننا من الابتسام يا تميم.. وعود البقاء تُسعدنا.

احتدت نبراته وهو يجيبني؛ وكأن كلامي يفتقر للمنطق: يجعلك الوعد المستقبلي تبتسمين بينما الشخص الماكث جوارك لا يفعل!

صمت قليلًا مهدئًا نفسه ثم تابع: بإمكانك الابتسام يا سارة.. بإمكانك الابتسام فقط لو تجاهلتِ حزنك، واكتفيتِ بأن هناك رجل إلى جانبك بهذه اللحظة ولن يتركك.

صمت بانتظار أي كلام قد أقوله، وعندما لم أتكلم تابع برفق: لا تفكري باللحظات القادمة وتتركين ما بين يديك.. حاضرك كنزك يا سارة.. حاضرك هو كنزك.

-لو اعتقدت يومًا أن حاضري هو كتري لما أتيت إلى هنا من الأساس!.. لقد أتيت لأنني أهتم بالمستقبل يا تميم.

سألني بعدم فهم: أأنتِ حقًا مؤمنة يا سارة.. أتؤمنين بالله والمعجزات؟!

-ليس هناك شك بهذا، لماذا تسألني هذا السؤال؟!

أجاب بلامبالاة: لأنكِ غريبة، لديكِ عُمْر.. قد تموتين بحادث سيارة، قد تموتين بالورم.. قد تموتين بأي شيء؛ لكنك تجاهلتِ الوقت المتبقي لكِ.. على الأقل لديكِ مُعدل للحياة لكن نحن! لا.. رُبما نموت بأي لحظة فجأة.. وأنتِ تقامرين بما تبقى لكِ من أيام!.. إنه انتحار يا سارة.

-أتحاول أن تتهمني بالكفر؟

-أنا لا أحاول اتهامك؛ لأنكِ بالفعل كافرة!

هذا هو تميم.. تميم الذي لم أرغب قط بالتعرف عليه، تميم الذي لم أجسر يومًا على سبر أغواره.

لا أدري كيف قمت بطرده، ولا كيف طلبت منه عدم الاقتراب مني مجددًا.

لماذا كلامه جلدني بسوطٍ من حمم!.. كعادتي لم أستطع التفكير بالأمر.. أو رُبما أنا لا أريد التفكير بالأمر من الأساس!

(معقول في أكتر!.. أنا ما عندي أكتر

ما كل الجمل يعني عم تنتهي فيك

تحكيني متل طفل صغير وهاملني كتير

لو شي مرا صبحية تفكر تتصل في

قلبي شو يا اللي بيعلقني بس فيك»

-١٦-

(أومن أن خلف الحبات الوادعات تزهو جنات

أومن أن خلف الليل العاتي الأمواج يعلو سراج

أومن أن القلب الملقي في الأحزان يلقى الحنان

كلي إيمان.. إيمان.. إيمان)

لم أستطع طوال اليوم ترك صورة رامي.. لا أدري لماذا ظللت أبكي.. الشعور بالألم لا يفارقني.

-أنتِ حجري الأسود يا ماما سارة.

-حجرك الأسود؟

-نعم.. أنتِ حجري الأسود.. أنتِ أثمن شخص بحياتي.

أنحني لأحتضنه، وأقبله مرددة من بين قبلاتي: وأنت أيضًا أثمن شخص بحياتي كلها.

أبعد الذكريات عن رأسي، تميم لم يحاول الاقتراب مني البارحة بعدما طردته.. كذلك اليوم.. لقد اقترب موعد المقامرة ولم يحاول طرق نافذتي أو بابي.

أتذكر ابتسامته.. مشعة وكبيرة.. أعتقد أنني واقعة بحبه، رُبما معجبة به.. شيء بين الحب والإعجاب.. ما اسم هذه المرحلة؟!

أنا لم أسقط بالحب بعد.. لكني تخطيت طور الإعجاب!

-أنا لا أحبه!

أصيح بنفسي كي أكف عن التفكير به بينما صوت فيروز لا يتركني لحالي.

-اللعنة.. اللعنة.. مليون اللعنة.

أصيح مجددًا ولا أدري ماذا يحدث لي!.. هل حقًا وقعت بحب هذا الكائن المتعجرف!.. مليار اللعنة!

حسنًا رُبما عليّ أن أذهب إليه للمرة الأولى.. لا أعتقد أنها فكرة جيدة ولكن.. مجرد التفكير بالذهاب إليه يجعلني أشعر بالانقباض.

أفكر في الأمر من جديد، ثم أقلع عن التفكير.. أنا أحبه! ما هذا الهراء!.. أنا لا أحبه ولا أطيقه من الأساس!.. إنها فقط الوحدة.. نعم الوحدة.

-مليار اللعنة.

صوت فيروز يجعل التفكير مُحال.

آخذ حمامًا دافئًا طويلًا، ثم أرتدي ثوبي الأزرق المعتاد.. الأزرق لوني المفضل.

أضع القليل من الزينة والعطر لأول مرة وكأنني ذاهبة لعُرس!.. رُبما على سبيل تضييع ما تبقى من الوقت.. قتل الوقت حتى لا أفتقد وجود تميم.

تميم!.. أمازلت أفكر به!.. اللعنة على الوحدة التي تجعلنا نفكر بالتورط مع أي شخص.

أغلق الراديو ثم أتجه نحو صالة القمار...

رأيته هناك يقف بجوار ماريا.. ملتصقًا بها، بينما لا أثر لريما.. رُغم عدم اقتناعي بلطفها المبالغ إلا أنني افتقدت وجودها. كانت تؤازرني.

لم ينظر ناحيتي نظرة واحدة!.. تجاهلني تمام التجاهل مما جعلني أغلي غضبًا لكنه سيعود يتودد لي.. لأنني أرفضه، فهو كباقي الرجال يركضون وراء المرأة ترفضهم وتعاملهم أسوأ معاملة.

بدأت المقامرة.. لقد أوشكت ذكرياتي على الانتهاء.. كذلك ذكريات تميم؛ لقد قامر البارحة كالمحموم، واليوم أيضًا يقامر كالمحموم.. ماذا يحاول أن يفعل!

الجميع يخسر اليوم.. الجميع يخسر كالعادة، وتميم يعلم.. تميم حذرني؛ فلماذا يوقع نفسه بنفس الفخ!.. لماذا يتهمني بمحاولة الانتحار بينما يحاول الانتحار هو الآن!

إنه متناقض!.. إنه متناقض ومتعجرف ومجنون وملحد.. لا هو ليس ملحد بل كافر!

اقترب منه: أتحاول الانتحار؟!

ينظر لي ببرود قائلًا: اهتمي بشؤونك الخاصة.

أيخبرني أن أذهب للجحيم!.. شعرت برغبة شديدة بصفعه، ورأيته يخرج آخر مجموعة من البطاقات ليراهن بها دفعة واحدة!

صرخ به: أيها المجنون الـ...!

صمت عندما جذبني من ذراع بعنف محذرًا: لا تتدخلي بشؤوني أتفهمين؟.. التزمي بحدودك معي.

ثم دفعني بعيدًا بقوة.. وقفت أفرك ذراعي أراقب ما يفعله.. أنا عاجزة عن مساعدته، والعجز بحد ذاته أمر سخيف مقرف!.. اللعنة يا تميم.. ألف اللعنة!

لقد خسر.. خسر وفقد كل شيء.. الحرية التي يبحث عنها.

لكنه لم يكسر أي شيء.. ولم يبكِ، ولم يتخبط، ولم يصرخ، ولم يحاول الهرب.. بل جلس أرضًا يحملق بشيء ما لا أراه.. يحملق به بفزع شديد.

شعرت أنه سيموت رعبًا.. ما الذي رآه يجعله يبدو هكذا!

-تميم.. تميم.

لم يجبني.. نظر لي نظرة خاوية وكأنه لا يراني، لم يعرفني.. ثم أخذ يرتجف.. يرتعش ويرتعد.. ثم انكمش على نفسه أرضًا وكأنه يحمي نفسه من شيءٍ ما.. اللعنة لماذا يغطي أذنيه براحته!

صحت بالموزِّع كي يطلب المساعدة؛ لكنه تجاهلني كما تجاهلني الجميع منهمكين بالرهانات.

لم أستطع فعل أي شيء سوى الاقتراب من الموزع وضربه بأحد الحوائط.. لا أدري كيف أتتني تلك القوة لكني فعلتها.. أمسكته من قميصه صائحة به لكنه لم يتحرك، ولم يقاوم، كان ينظر لي وكأنني مخلوق فضائي.

صرخت به متسائلة: ألا أستطيع فعل شيء له؟

هز رأسه بأن (لا).

صحت به: أي وسيلة.. أي وسيلة.

أتى صوته ضعيف وقور وبارد، وكأنه آتٍ من مكانٍ بعيد: بإمكانك فقط -إذا أردتِ- وهبه ما تبقى لكِ من ذكريات كي يقامر بها.

نظرت له بعدم فهم؛ فهذا يعني أنني.. يعني أنني سأموت.. يعني أنني سأفقد فرصتي بالحياة!

سألته: كُلها؟

هز رأسه مجيبًا: نعم، كُلها.

لدقائق فكرت بالأمر.. ولم أستطع اتخاذ قرار إلا عندما سمعت تميم يئن.. ثم بدأ في العويل.. صوته هشم قلبي تهشيمًا.. لا أدري لماذا انفجرت بالبكاء؛ وكأنني أرى رامي أمامي وليس تميم.

ثم تذكرت كلماته، أنا لا أختلف كثيرًا عن أهل الوادي.. رُبما عليّ أن أكون مختلفة، عليّ أن أتخذ طريقًا لم يتخذه أحدٌ من قبلي.

أمسكت بحقيبة ذكرياتي، وأعطيتها للموزع قائلة: انقلها له.. أعطِ له فرصة جديدة.

أخذها مني دون مناقشة، رُبما لو ناقشني لتراجعت عن قراري...

عندما أنظر لحياتي.. إنها حقًا مُزرية!.. اللعنة إنها مُزرية للغاية!

لا مستقبل حتى دون ورم.. لا رامي.. لا زوج.. لا عائلة.. لا حبيب.. لا أصدقاء.. لا شيء.

لكن تميم.. تميم لديه شيء يدفعه للحياة.. لا أمل من فوزي؛ فأنا لست ريما.. أنا أمتلك جبال من الذكريات السيئة، لست تميم أعلم أنني كافرة وراضية بكفري.

أنا لست ماريا تلك التي تبحث عن إيمانها المفقود.. أنا مختلفة عنهم جميعًا.

لقد آمنت بحدوث المعجزات.. لقد آمنت أن الوادي معجزة رُبما تحقق لي الشفاء عن طريق الرب.

لكن.. لقد تمسكت بالإله عندما علمت بوجود الوادي، بوجود معجزة ما تستحق الشكر؛ فبدأت أدعو وأبتهل وأصلي.. كنت أتحلى بالإيمان فقط لأنني بانتظار معجزة.

لكني سأكون بخير؛ فربما سيل الذكريات التعيسة يخفف القليل من ذنوبي.

لن أستطيع توديع تميم وداع لائق، ولن أستطيع سماع صوت فيروز لمرتي الأخيرة لكن سأكون بخير...

سأكون بخير...

(أومن أن خلف الريح الهوجاء شفاه تتلو الصلاة

أومن أن في صمت الكون المقفل من يصغي لي

أني إذ ترنو عيناي للسماء تصفو الأضواء تعلو الألحان

كلي إيمان.. إيمان.. إيمان)

التواصل

Twitter:@Doha١Oaria

OritiaOri@gmail.com

الفهرس